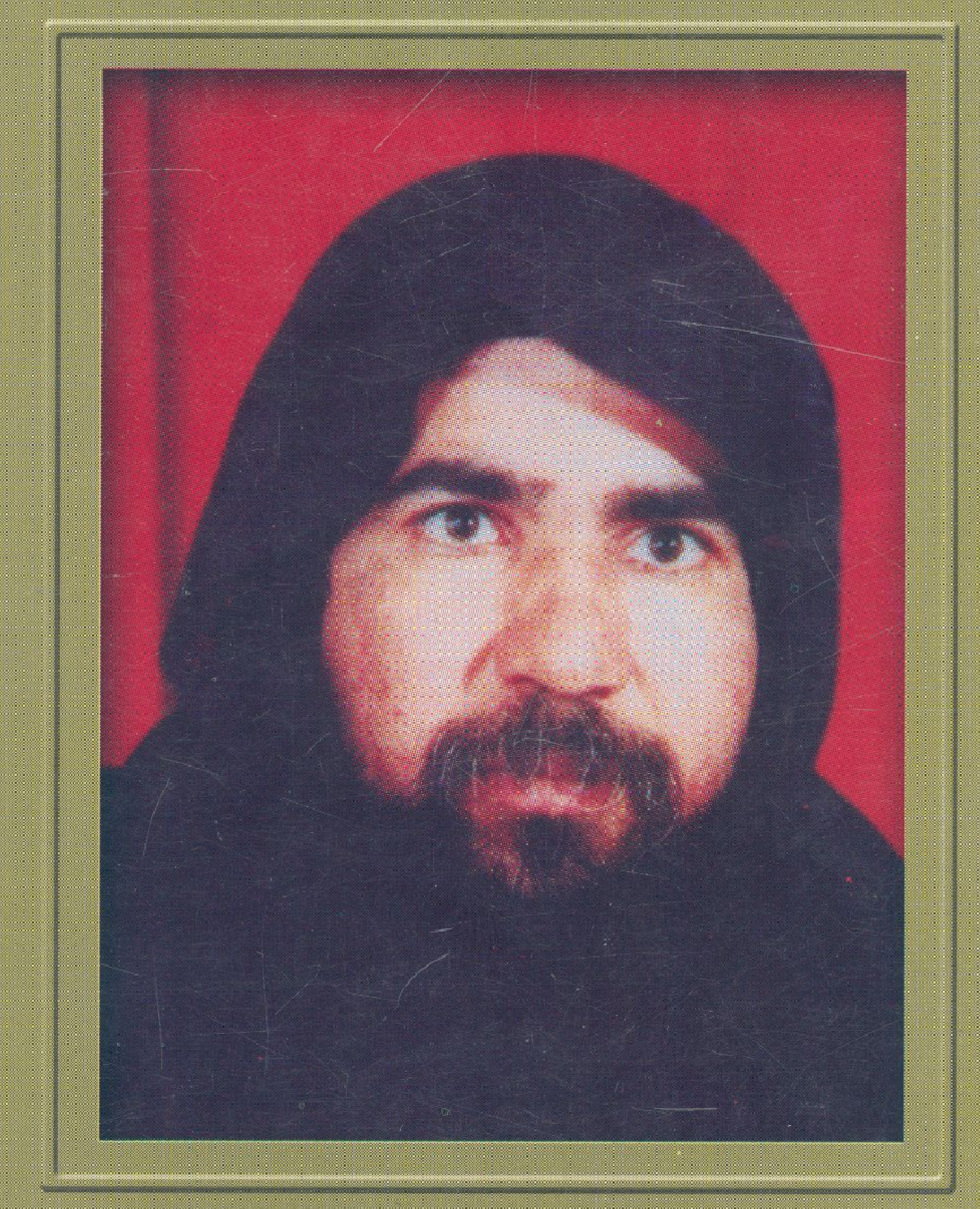
الراهب جاورجى المقارى
فائق زكه بولس

اعترافات راهب مصرى

الدين . السياسة داخل الدير



مدبولى الصغير

اعترافات راهب مصرى

1

اعترافات راهب مصرى

الناشر: مكتبة مدبولى الصغير
٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز- المهندسين
تليفون: ٣٣٤٢٢٥٠/٣٤٧٧٤١٠
ميدان سفنكس: ت ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع ٣٥٤٦/٢٠٠١
الترقيم الدولى: 977-286-116-X

فائق زكه بولس

اعترافات راهب مصرى

جوارجى المقارى

«سابقاً»

الناشر: مدبولى الصغير

إهــداء

إلى كل إنسان يبغى الحقيقة.

فائق

المقدمة

فى موضوع حساس وخطير مثل هذا، يتردد المرء آلاف المرات، ولكن كان الدافع بداخلى أقوى من أى تردد.

فأولاً: إن لم يستفد الشباب من تجربتى، فبتجربة مَنْ سوف يستفيد؟ خاصة أن الذين خرجوا من قبلى لم يكتبوا وفضلوا الكتمان على ما اعتبروه فضائح.

ثانياً: إن كل ما نخشى عليه من النور فهو ظلمة، والظلمة كذب، فإذا كان الموضوع الخاص بالكتابة حق فلماذا نخاف من إظهاره؟

ثالثاً: كانت المتضادات التى عشتها تصطرع فى عقلى وكادت أن تفجره، فأردت أن أضع حداً لهذا الصراع الهائل قبل أن أُجن.

أخيراً: إن أنقذت كلماتى شاب واحد من التطرف الدينى أكون قد بلَغت رسالتى وأموت مرتاح الضمير.

علماً بأننى لم أكذب ولا فى كلمة واحدة، ولم أبالغ فى شىء، بل أجهدت نفسى لأصف الأماكن والأشخاص والأحداث كما جرت أمامى. وهل أستطيع أن أكذب فى وقائع أصحابها مازالوا أحياء؟!!

فائق زكه بولس

الراهب جوارجى المقارى «سابقاً»

طفل يحلم بالرهبنة...

عالم من الأشباح والقديسين

كانت شمس ذلك اليوم مشرقة دافئة، كنت أتطلع بشغف من خلف شباك السيارة التى تحملنى مع والدتى وجدى وأبى إلى القرية عند جدتى، كانت السيارة تسير ببطء شديد بفعل الطريق الذى لم يكن مرصوفاً، وبدأت عيناى تلتهم ماتراه من معالم الطريق، لم تكن سنوات عمرى تجاوزت الثالثة بعد لكنى كنت قادراً على أن أحس أن فى كلماتهم الإحساس بالفرح والسعادة وحاولوا أن ينقلوا لى هذا الفرح فسوف أعيش مع جدتى الحنون.

كان قلبى مملوءاً بالسلام والهدوء.. فلم تكن شرور الحياة قد اقتحمت حياتى بعد، وقبل أن نصل لقرية جدتى بدقائق إذا بصبى يلتقط قطعة من الطين الجاف ويصوبها نحو السيارة ويقذفنى بها فأصابتنى فى ذقنى، لم أحرك رأسى لأتفادى صدمتها فلم أدرك وقتها أنه كان ينوى إصابتى، وكنت أتفرج على مايقوم به.. وفجأة تبدلت سعادتى بالبكاء والدموع وسالت الدماء على وجهى فجففوه لى وربتوا على ظهرى، حتى أنسى ماحدث.. لكن اقتحمنى إحساس طاغٍ وقتها رغم صغر سنى وهو مرارة أن تتحول سعادتك فى لحظة واحدة إلى شقاء بفعل آخر ليس لك به علاقة ولا ذنب لك فيما فعل.

ووصلت إلى بيت جدتى التى كان حنانها لا يوصف، ولم يكن يقل عنه حنان جدى رغم أنه كان زوج جدتى وليس جدى والد أمى، فقد مات جدى وأمى ماتزال صغيرة فتزوجت جدتى من هذا الرجل، كان قصير القامة يلبس البدل دائماً ويغطى رأسه بطربوش أحمر، لازلت أذكر أنفه المفلطح بين قوسين من التجاعيد، لازلت أذكر يديه وسبابته اليمنى المقطوعة، كان الرجل عالماً بأمور الدين يعمل بالوعظ يقرأ كثيراً ويكتب كثيراً ولازالت بعض أوراقه التى كتبها بالريشة موجودة بالمنزل، كان ماهراً فى كل شىء فهو نجار وحداد وصياد، وفوق ذلك كان مؤدباً لم

أسمع منه لفظاً غريباً ولا حتى كلمة تجرح الشعور، أما جدتى فكانت تدللنى دلالاً زائداً، كنت تسليتهم واهتمامهم ورسالتهم فى الحياة.

مكثت فى هذا الجو الرائع عامين تقريباً، كم لعبت وكم فرحت وكم تأملت الوجود من حولى لاسيما فى أوقات سكونه، فقد كان سكون القرية جميلاً محبباً، بعد الإفطار وكوب الحليب أتلقى دروس العلم، حروف الهجاء وشكل الأعداد، وفى المساء أنتظر «فلة» صغيرتى التى لو نسيت الجميع فلن أنساها.. وكيف أنسى حبيبة قلبى وأول حب فى حياتى.

كانت «فلة» جميلة ربطتنى بها علاقة حب عميقة، كانت تأتينى بهدايا صغيرة وبعض الحلوى تحتضننى وتقبلنى وأقبلها وأحيط عنقها الجميل بيدى الصغيرتين، تحملنى على ذراعيها ومرة على كتفيها، وتخيلوا أن حب فلة مازالت رعشته تسرى فى قلبى وأوصالى، كانت فلة بالنسبة لى هى كل شىء، عندما كانت تغيب عنى لمرض أو لأى سبب أحزن حزناً شديداً وعندما تأتى بعد غيابها حتى ولو كان قصيراً كنت أقبلها وأعانقها بقوة.

◆◆◆

تعلمت على يد جدى الذى بجوار وعظه يُعلم تلميذاً هنا أو هناك، كان يشجعنى ويحضر لى الهدايا كلما نزل إلى المدينة، فتعلمت القراءة والكتابة والحساب فى الخامسة من عمرى كان جدى يقول لى «أنت نابغة ياولد».. ومن سوء حظى أنه لم تكن هناك مدارس بمعظم القرى ولم تكن الحياة سريعة مثل الآن، بل كانت بطيئة سهلة ناسها مسالمون.. وجاء الوقت لأرحل فقد علمت أننى لابد أن أعود إلى المدينة لألتحق بالمدرسة الابتدائية، كانت أحزان جدتى لاتوصف لأنى سأتركها وكذلك جدى ولو كانوا يملكون منعى لمنعونى من العودة.

◆◆◆

تركت القرية وسط دموع جدتى، أما «فلة» فلم تودعنى ولم تحضر للوداع الأخير، كنت أشعر بشىء من الكآبة وبكثير من الغموض فى أعماقى لا أعرف لهما سبباً، أمر واحد كان يشجعنى على الرحيل هو التحاقى بالمدرسة، فقد كنت

فى شوق إليها. وبقدر ما كان استقبال القرية لى حاراً قبل عامين. كان استقبالى فى المدينة بارداً وجامداً، فهذا أخى الأكبر أراه وكانى أعرفه لأول مرة، وهذه أختى التى تكبرنى بأربعة أعوام لا أكاد أعرفها.. ثم هذا الصغير الذى يقبع فى حضن أمه والذى جاء إلى الحياة بعدى، حتى أمى لم تكن تحس بى فهى مهتمة بصغيرها، ويبقى أبى هذا القاسى، الذى كان يستطيع أن يحطم خمسة رجال بضربة واحدة من يده، كان الشرر دائماً يتطاير من عينيه المخيفتين، ينكسر الغيظ تحت أسنانه وكأنه مرجل يغلى دائماً بالغضب، كنت أسمع زئيره على بعد أميال وهو يضرب أمى أو إخوتى.. كان صراخهم يجعل الجيران يتجمعون ليخلصوهم من بين يديه قبل أن يفتك بأحدهم، لكنه كان يرد الجيران رداً عنيفاً، فإذا زمجر لهم لايجرؤ أحد على الاقتراب من المنزل.

كان الفارق بين جدى وأبى كبيراً، فقد كان جدى تربوياً بمعنى الكلمة، فإذا أحسنت يكافئنى، وكم كان يكافئنى بالفول السودانى، وإذا أسأت كانت نظرة منه تردعنى وتجعلنى أعتذر، وكانت جدتى تخفف حدة التوتر بيننا عندما تقول «اذهب قل له أنا غلطان متزعلش منى»، لكن أبى كان العنف هو لغته ومنهجه وطريقته، وكنت أتعجب فكيف لطفل بحساسيتى ورقتى يستطيع أن يعيش فى بيئة قاسية مثل هذه حل الخوف فيها محل الأمان، والاضطراب محل السلام، حتى الأم التى من المفروض أن تكون صمام الأمان كانت هى نفسها فى غير أمان، فلمن ألجأ ومن يحمينى من هذا الأب، والآن أجدنى أقول إن الرعب الذى رأيته فى طفولتى كان كافياً لقتل أى طفل آخر، ولكنى أرى أن الله أعطانى قوة للصبر والتحمل حتى أكبر.

نعم.. لقد وهبنى الله الحياة.



انزوت نفسى المسكينة فكنت دائماً أبحث كالفأر عن جحر يخفينى من وجهه، أغلقت قلبى الصغير فلم أعد قادراً على حب هؤلاء الغرباء، بالكاد كنت أتعامل معهم وبحرص شديد، كنت كمن خرج من الجنة إلى الأبد.. خرج إلى الجحيم.. فقدت متعة الحياة وأنا مازلت صغيراً، كان طعام جدتى أشهى طعام

ذقته فى حياتى، الآن كل شىء حتى الطعام ورغم أنه من يد أمى لم يكن له أى طعم.. لم تكن عندى رغبة فى الطعام أو أى شىء آخر، كل ماكنت أتمناه أن أتخلص من العالم المخيف الذى أعيشه.



دخلت المدرسة فى الخامسة وليس السادسة لأن أهلى رأوا أن فى هذا مكسباً لى ولم يعلموا أن هذا سيؤثر علىّ سلباً وليس إيجاباً فى عمليتى التعليمية، لم يهتم بى أحد ولا تابعنى أحد، وبعد حوالى عام وأنا فى بداية الصف الثانى الابتدائى كان بالمنزل تلميذة فى الصف الرابع، ولكنها لم تكن تستطيع قراءة حتى كتاب الصف الأول، فعرضوا علىّ كتبها فقرأتها وبسرعة، فقالوا إنه يحفظ الصور فاخفوها عنه واتركوا له الكتابة فقط لنعلم إن كان حقاً يستطيع القراءة، فقرأت (كلب نصر.. كلب سوسن.. بيت نصر.. بيت سوسن....)، وبعد أن تأكدوا من قدرتى على القراءة تركونى فى حالى.

كانت والدتى هى الوحيدة التى تتابعنى من حين لحين ولم تدخر جهداً فى متابعتى دراسياً، فقد كانت ترانى مظلوما، كما كنت أراها مظلومة لاتستطيع أن تفعل أكثر مما تفعل، فهى تحيك ملابس الجيران لتوفر لنا بعض متطلبات الحياة رغم أن دخل والدى لم يكن قليلاً ولكنه كان بخيلاً مقتراً علينا.

بدأت آخذ فى الأسرة مكان الضعيف، مكان البنوتة الذى يبكى لأتفه الأسباب، وعندما كبر أخى الصغير بدأت أمى توزع اهتمامها على الجميع، وبدأت علاقتى الحقيقية بها فى التاسعة من عمرى حول طشت الخبيز، فعندما كان يحل موعد الخبيز يحل الفرح فنركب الكارو لحمل الغلال إلى المطحنة، نعم كان يوم فرح وتمنيت أن أرى الماكينات التى تحرك القرص الكبير الذى يقوم بطحن الغلال، وذات يوم قالوا لى أدخل أسفل المطحنة، فدخلت وسط الأصوات العالية الضخمة ورأيت التروس الكبيرة والعجلات المتحركة والسيور العريضة، فخفت وتخيلت نفسى بين هذه التروس تعتصرنى فخرجت ولم أفكر ثانية حتى فى رؤية الماكينات.

كنت أجلس بجوار أمى وهى جالسة فى مهابة تنخل الدقيق وتسمى باسم

الرب وتطلب البركة وتبدأ فى قص قصص الأنبياء والقديسين لى ولأخى الصغير.

لحظتها كان يتغير وجهها فتكسوه المهابة وتتغير نبرة صوتها وكأنها تصلى..

«ثلاث فتية عبرانيين لم يخافوا الملك ولا قوته ولا آتون ناره..

رفضوا السجود له لأنهم يعبدون الله الحى..

ألقوهم فى النار ولم يحترقوا.. ولا أتت النار على ثيابهم»

«كان داود صغيراً وجليات عملاقاً..

قال داود: أنت تأتينى بسيف ورمح وأنا آتيك باسم رب الجنود

وقذف حجراً من مقلاعه فصدم جبهة جليات فسقط على الأرض

وانتصر الضعيف المؤمن على القوة الكافرة»

لا أستطيع وصف حالتى آنذاك، فقط كنت أستمع وأصغى بكل كيانى فتهيم روحى وينطلق خيالى لأرى وأحس الحقائق والشخصيات وكأنى دخلت فى عالم الروح.



ويعيداً عن حكايات أمى..

كان إحساسى بما هو خارجى مرتباً ومتدرجاً، فأول إحساسى باللذة كان باللذة الحسية التى تمثلت فى الطعام فى الثالثة من عمرى، ثم اللذة النفسية العاطفية بالقلب الحب والحنان، أما إحساسى الروحى فجاء فى الثامنة تقريباً، قبلها كان حب «فلة» يلهينى حتى عن الطعام، حتى موعظة القرية التى كان يلقيها جدى لم تكن تشغلنى عن «فلة» وحبها، وعندما جاء الإحساس الروحى نسيت كل شىء حتى فلة وأحضانها وقبلاتها.. كنت أتحرق شوقاً لسماع قصص العهد القديم.. كيف سار موسى أمام الشعب وأخرجهم إلى البرية وضرب البحر بعصاه فانشق ليعبر الشعب ويغرق فرعون.

وأمام الطشت أفصحت أمى عن مكنوناتها وأسرارها وقالت: تمنيت قبل الزواج أن ألتحق بالدير، ولما طلبت ذلك رُفض طلبى لأنى كنت دون السن

القانونية للرهبنة، وحينما تقدم لى والدك وعلمت أن والده قسيس قبلته لأجل والده ـ ويبدو أن أمى لم تكن تعلم أن معظم أولاد الكهنة أشر من غيرهم ـ وقلت فى نفسى إن حياتى مع ابن كاهن لن تختلف كثيراً عن حياتى فى الدير فسوف أتمكن من العبادة والاتصال الروحى!!



كان هذا أول غرس لبذور الرهبنة فى نفسى، ووجد هذا الغرس بيئة صالحة ينمو فيها، فالكنيسة تثبت وتزرع إن لم يكن هناك زرع فهى تقوم بتدفئة البذور وتغطيها وتحميها من الشمس قبل الإنبات وتحرسها من الطيور فور إنباتها وتسقيها بالتعاليم وتطعمها بالأسرار وتحيطها بسياج وتمدها بالسماء، الكنيسة بالفعل هى أصلح وأنفع بيئة للنمو الروحى ولاسيما فصول مدارس الأحد، شبعت فيها وارتويت، نموت وكبرت وكم قرأت وسمعت وحفظت عن ظهر قلب وتأملت وبكيت وفرحت.. وكم اعترفت وتبت.

كان تعليم الكنيسة ولايزال يمجد الرهبنة والرهبان، ويقدس البتولية (عدم الزواج) ويفضل البرية (الأديرة) عن العيش فى العالم (فى المجتمع)، وكان السنكسار يحمل ـ كما كنت أرى ـ أجمل وأروع القصص عن الرهبنة والرهبان والقديسين، كنت أسمع قصة عن ذلك الناسك وأخرى عن العفيف وثالثة عن البتول ورابعة عن الذى تقشف وعاش أربعين عاماً فوق عمود، وهذا الذى تمسك بالإيمان حتى استشهد وسفك دمه.

كان السنكسار يشير وينبه وبستان الرهبنة يدفع ويجذب ويشجع بشدة تجاه الرهبنة.



وجاء دور أخى الأكبر..

واستكمل دور أمى فى التربية الروحية، وكانت قدماى قد اشتدتا وأستطيع السير معه فى الشوارع مصغياً إليه، أحترق شوقاً لسماع القصص، كان أخى متطرفاً ولم افهم سر تطرفه إلا عندما قرأت فى بعض الكتب أن قسوة الآباء تدفع الأبناء إلى التطرف الدينى، كنت أذهب معه إلى الكنيسة، فقد كان معلماً

فى مدارس الأحد، طالت صلواته وكثرت أصوامه وازدادت كتبه وقراءاته واشتد زهده فى الحياة حتى صار راهباً فى ثوب علمانى وناسكاً فى حجرته، وكانت الرهبنة حلمه وأمله والبرية شوقه ووجهته، كان ثانى فرد فى الأسرة يتمنى ويحلم بالرهبنة، لكنه فجأة تغير وطلب الزواج وأنجب أولاداً.



شهدت كل هذه الأحداث فترة مراهقتى التى كانت عنيفة على نفسى، قبلها كان كل شىء يخضع لعقلى.. أما فى ظلال المراهقة فقد ظهر مارد من داخلى عملاق، لايسمع لصوت العقل ولا يرضخ له، إنها الغريزة التى تمردت على دعتى وسكونى ولطفى وهدوئى.. ولست أدرى كيف رضخ عقلى وتنازل للغريزة حيث صرت أحلم بإجابة شهوات الجسد، وأطلقت أفكارى للخيالات الجسدية وأقمت حوارات ومداعبات مع البنات من جيرانى، لم يكن خضوع عقلى تاماً فقد جرت على صدرى حروب هائلة بين عقلى وغرائزى، بين ضميرى وعواطفى، بين تربيتى وحاجاتى، وكم كانت هذه الفترة قاسية عنيفة ـ ولكننى تأكدت أنه مهما بلغت متعة الجسد فلن تبلغ درجة اللذة الروحية، فقد ملكت اللذة الروحية علىّ كيانى فكيف أصف لكم إحساسى فى الصلاة أو متمتى بالصوم أو تعزيتى بالقراءة، كيف أصف بلغة الأرض ماهو من السماء، ماهو من عند الله.

لم تستغرقنى المراهقة الكثير، فقد بلغ حنينى للعودة إلى الله مداه، كان الجسد قد تلطخ ببعض الأوساخ التى يجب الاغتسال منها، فكنت أتوب وأنكص على عاقبى، أتقدم وأرتد، أسير أياماً مع الله ثم سرعان ما أتركه لأشبع غرائزى.. ويبدو أن طول حيرتى جعلت الله يشفق على تعبى وجهادى فأرسل لى معيناً وسنداً «أب اعترافى»، كان راهباً من نفس الدير الذى ترهبنت فيه، عشت فى البر والصلاح والتقوى، وكان عمرى لايتجاوز الحادية والعشرين، وكانت الحياة جيدة إلى حد بعيد.

ولكن الخطر كان ينتظرنى..

فأب اعترافى راهب وإن لم يُحرضنى على الرهبنة بأقواله، فيكفى أنه مثَّل أمامى وهو رجل تقى كل التقوى، ومهما حاول الراهب أن يكون أميناً فى

توجيهاته ولا يوحى لك من قريب أو بعيد بفكر الرهبنة ومهما دقق وشحذ ذهنه فلن يفلح مطلقاً، وحتى أكون أميناً فأب اعترافى لم يدفعنى دفعاً مباشراً للرهبنة ولا للتفكير فيها، بل أنا الذى أحببته وأحببتها منذ نعومة أظفارى!!

كانت قراءاتى تزيدنى تمسكاً بها يوماً عن يوم، ولم تكن عيناى تقعان إلا على الآيات التى تشير إلى ذلك الطريق، رغم أنه لاتوجد ولا آية صريحة واحدة تحرضنى على ذلك المسلك، فربما كان خيالى الذى شغف بها وعشقها كان يرسم من حروف الآيات طريقاً نورانياً جذاباً بدايته الدير ونهايته السماء بكل أمجادها، بدايته الخروج للبرية ونهايته الوجود الدائم فى حضرة الله.

وقعت عيناى على رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى (الإصحاح السابع) «أما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن تجنباً للزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ـ غير المتزوج يهتم كيف يرضى الرب، والمتزوج يهتم كيف يرضى زوجته، وبين الزوجة والعذراء فرق، العذراء تهتم بما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً.. إذاً فمن تزوج فهو حسن ومن لايتزوج يفعل أحسن»، وصل القديس بولس الرسول فى فكرى إلى قمة تحريضه على الرهبنة، إذ قال: «أريد أن يكون جميع الناس كما أنا بدون زواج».

طرت بهذه الآيات وطارت بى إلى عنان السماء..

ومن آيات المسيح التى ألهبت قلبى وعقلى بشدة قوله لتلميذه متى العشار: «اتبعنى» "Follow me"، وبعد هذا خرج المسيح فنظر عشاراً اسمه لاوى جالساً فقال له: «اتبعنى».. فترك كل شىء وقام وتبعه، وفهمت أنا المعنى على أنه ترك كل شىء، الأهل والأصدقاء، الزواج والعالم والذهاب للبرية.

◆◆◆

كان دافعى لطريق الرهبنة هو الحب الإلهى الملتهب كالنار، الحب القوى العميق المؤمن الواثق، ذاك الحب الذى حوّل «موسى الأسود» قديساً ولمس قلب «رابعة العدوية» فتغيرت وعبدت وتنسكت.

وحضرتنى اللحظة فصرحت لأب اعترافى برغبتى فى الرهبنة فرفض الفكرة من أساسها، بل حذرنى من سلوك هذا الطريق ولم أسمع له.. ولما قابلته بعد خمسة عشر عاماً تقريباً وجدته يقول لى: ألم أحذرك؟! لم يحذرنى فقط لكنه قال لى: اسلك طريق الزواج فلدينا نخبة من الشباب المتزوج وهم على درجة عالية من التقوى والإحسان والبر، ولم يكن لدىّ عقل لأفهم كلامه على حقيقته بل فهمت أنه يُخلى المسئولية عنى، فلو دفعنى لطريق مثل هذا لتحمل أمامى وأمام الله مسئولية خطيرة.

موقف والدتى كان معروفاً مسبقاً، وكذلك موقف أختى، أما الوالد فكنت لا أشركه منذ صغرى فى قراراتى واتجاهاتى، ولما علم كان رافضاً ولكنه لم يحاول أن يمنعنى، وعن بلدتى فكانت ولازالت فى منتهى التدين وحب الله، وكانت آنذاك تشيد بالأستاذ «رمسيس نجيب» المدرس الفنان التى لاتزال رسومه فى الكنائس، والذى خرج إلى البرية وترهبن وقد أعطاه الله موهبة إخراج الشياطين وسمى أبونا «أنجيلوس» وقد توفى منذ ثلاثة أعوام تقريباً(*)، وهكذا ترى أن الجميع من حولى فى بلدتى كانوا يمجدون هذا الطريق.

كانت مجموعة الشباب من بلدتنا التى أنتمى إليها كبيرة، كنا نسهر حتى الصباح فى الكنيسة عابدين ومصلين، وقد ترهبن من هذه المجموعة أكثر من خمسة أشخاص وتكرس (عاش بتولاً يخدم فى العالم) أكثر من خمسة أشخاص، وحتى أقراننا من البنات منهن من ترهبنت ومنهن من تكرست، ومنا من فشل وعاد، ومنا من مازال يلاطم الأمواج وتلاطمه الأمواج، لم أسمع من قال: «وسترجع يوماً ياولدى مهزماً مكسور الوجدان».. لكنى عندما أسمعه الآن أتحسس قلبى فأجد كسراً وشرخاً فى قلبى ونفسى ووجدانى.

❖❖❖

تطرفت قبل الذهاب للدير، فلا إذاعة ولا تليفزيون ولا مجلة ولا جريدة، فقط كتب دينية وكنبة وحجرة مغلقة وصلوات عميقة وقراءات طويلة وصيامات أكثر.. كانت لدى دوافعى لسلوك طريق الرهبنة، وكانت هذه الدوافع متوافرة لدى

(*) وقت كتابة هذا الكتاب.

كثير من الرهبان، وإن كان منهم من يعتمد على «الإعلان الإلهى»، أى يعلن الله للشخص أن يترهبن إما برؤيا فى الليل وإما بمشورة من يعتقد أنه قديس عظيم، وإما يقول الشخص لله إن كنت تريدنى أن أسلك هذا الطريق فاصنع لى علامة، وإما ينقذ الله الشخص من موت محقق فيقول له: هذه حياتى أنقذتها فسأهبها لك.

ولكن الحق، وفى مسألة مصيرية مثل الرهبنة فلا يصح إطلاقاً الركون إلى مثل هذه الأشياء، فلربما كانت كاذبة فتُضيع الشخص وتُضيع حياته.. فكيف يجازف الإنسان بحياته ويخاطر بها.

وإليك بعضاً مما حدث..

فقد قص علينا الأب الروحى «الإعلانى الإلهى» له الذى شجعه على هذا المسلك، فقد رأى فى رؤيا وهو نائم أنه يقرع على باب عتيق قديم هائل كبير كساه التراب وعششت فيه العصافير، وضربت فيه العناكب بيوتاً.. وأخذ يطرق الباب، فظهر له ملاك وحذره من الدخول من هذا الباب، إلا أنه أصر على ذلك، فكلمه الملاك ثانية وقال: «خلف هذا الباب طريق مملوء بالأشواك والمتاعب والصعاب والمرار» ولكنه أصر على الدخول ودخل..

وفسر حلمه قائلاً إن الرهبنة الأصيلة لم تكن ممارسة آنذاك ومنذ زمن لم يسلك فيها أحد وأن الرب اختاره ليحيى رهبنة القرن الرابع الميلادى، ويكون أباً لرهبان كثيرين، أما الرهبان قبله فكانوا جماعة من الجوعى يلتمسون الخبز من الأديرة.

حدث هذا الحلم كما قصه علينا هو فى أحد المرات وهو مسافر بالقطار، والسؤال: ألم يكن هناك بائع مثلجات يضرب على الزجاجات فيوقظ صاحبنا من أحلامه وخيالاته، ياليته لم يسافر أصلاً أو على الأقل ليته شد الغطاء جيداً على نفسه فلم يتعرض للهواء البارد الذى جذب له غريب الأحلام!!

◆◆◆

كان قرار الرهبنة يراودنى..

ومرت علىّ ثلاث سنوات ازداد شعورى خلالها بالرهبنة ويقينى أنها طريقى

الوحيد، وبعد خمس سنوات رهبنة كنت لاأزال أحلم بها ليلاً، فكنت أحلم أن قطار الرهبنة قام من على رصيفه، وعندما أجرى لألحقه يفوتنى فأقوم مفزوعاً من النوم لأجد نفسى لابساً السواد، طالقاً شعر لحيتى وشاربى فأشكر الله الذى حقق حلمى.

لكننى تعبت خاصة بعد دخولى الجيش، فى النهار عمل شاق وفى الليل خدمات وحراسة، هذا غير أمراض السلطة التى يصاب بها فرعون عندما يمسك فى يده بصولجان الأوامر.. قلّت صلواتى وقراءاتى فلم أعد أحضر القداسات، أضف إلى ذلك أن مرتبى من الجيش كان ستة جنيهات (سنة ١٩٨١) لاتكفى حتى للمواصلات فتبدلت الأحاسيس والانفعالات، وارتد قلبى وعقلى إلى التفكير فى صاحبتى (أروع البنات)، وزادت رغبتى فى الزواج، وعيناى التى كنت أضبطهما صارت تغلبنى وتنظر للفتيات، ولكنى قلت فى نفسى إن هذا شىء عارض، ولابد أن أتمم رغبتى فى الرهبنة، شحذت إرادتى ورتبت حقيبتى وخرجت من الجيش إلى الدير مباشرة.

واخترت ديراً بعينه..

كان ديراً يتميز بالقسوة والعنف وهو ماينا‌سبنى، فقد كنت قاسياً عنيفاً مع نفسى، وكان بهذا الدير عمل، وعمل إجبارى، إذن فلا وقت للملل أو الضجر، كما أن أب اعترافى كان يعيش فيه، وهو دير لم يكن فيه اتصال بين الرهبان والزائرين ولا نقود ولا شىء عن العالم، ولم يكن متاحاً كذلك الخروج من هذا الدير للخدمة كما يحدث فى الأديرة الأخرى، أضف لذلك نظامه ونظافته وترتيب كل شىء فيه، هذا فوق أنى عملت فى هذا الدير وأعرف كثيراً من رهبانه، ثم أنى كنت قد صليت فيه كثيراً، واختليت بنفسى كثيراً..

وأخيراً.. فقد اخترت هذا الدير دون غيره بسبب عمى عينى وعمى قلبى عن حقيقته.

رهبان.. وشياطين

أيام الشقاء فى الدير...

هل كانت الرهبنة بالنسبة لى مأساة؟

نعم.. كانت مأساة بكل معانى الكلمة، بل وأكثر مما تحمله الكلمة من معنى!!

لقد كان حبى لمصر فوق كل تصور، فاق حبى للوطن حبى للحياة نفسها، أذكر عندما كنت فى الجيش أتمنى من أعماقى أن أستشهد فى سبيل مصر، كنت أشعر بحبى لمصر بأكل قلبى للدرجة التى كانت تسيل فيها دموعى، نعم كنت مصرياً، هكذا تربيت وتلقيت تعليمى حتى الجامعى.

وعندما عشت حياة الدير وعزلونى عن العالم أصبحت لا أحس بمصر ولا بحب مصر، إن أصعب شىء فى هذه الحياة هو عدم الانتماء، أن تحس أنه ليس لك وطن تنتمى إليه وتعتز به، ولو لزم الأمر تدافع عنه وتموت من أجله، إن الإحساس بعدم الانتماء إحساس قاتل ولايعرف ضراوته إلا الذى جربه أو مر به.

أنهيت الخدمة الوطنية بتاريخ ١٩٨١/٧/١، بشهادة تقدير قدوة حسنة، لأنى وليسامحنى الله هكذا كنت فى كل شىء فى العمل، فى وقفة الخدمة، فى الرماية (الأول فى المطار)، وكان لبس الميرى (الملابس العسكرية) فخراً واعتزازاً لى، ومن الجيش خرجت مباشرة إلى الدير لتأدية الخدمة الدينية، هذه الخدمة التى أقدسها منذ الطفولة والتى انتظرت أن أنهى تعليمى وخدمتى الوطنية لأتفرغ لها، بل لأكرس كل حياتى لها حتى آخر لحظة من العمر.



ذهبت إلى الدير لأقابل آبائى الروحيين وأبا الآباء الروحيين، وهناك تلقيت تعليمى الجديد ودروس الأبدية (الخاصة بالحياة الأبدية بعد الموت)، كنت أتلقى

تعليمى على يد معلمين أكفاء، وكنت من أبرع الطلاب وأذكاهم وأدقهم، حفظت الدروس عن ظهر قلب وطبقتها حرفياً.

كان التعليم الأول للمبتدئين ينص على نسيان العالم الذى تركناه بكل مافيه ومن فيه، ننسى الأم والأب والأخت الحنون والأخ الصديق والصديق الأقرب من الأخ، كنت أحب أصدقائى مثل نفس، ننسى المدرسة، ننسى النيل بجماله الربانى الخالص، ننسى كل شيء وحتى أنفسنا، وبتعبير دقيق نذيب أنفسنا خدمة لله والدير، ندع وطننا لندخل الوطن الجديد، والحق يقال إنها لم تكن خدمة لله، بل ذابت أنفسنا خدمة لهم، لأولئك المعلمين الروحيين.

علمونا أن وفاءنا للوطن وولاءنا له لابد أن يتحول جملة وتفصيلاً إلى وفاء للدير وولاء له، علمونا أن حب الدير وخدمته وخدمة من فيه، هو الحب خلف أسوار الدير، وأى اتصال أو حب للعالم (خارج الأسوار) هو اتصال وحب سيدمر حياة الرهبنة للراهب فيخسر الحياة الأبدية التى هى كل هدفه وسعيه.

وقد حدث بالفعل أن قدسنا الدير ورهبانه وترابه وقوانينه، واستبدلناه بالوطن. فهم يقطعون الراهب عن العالم بكل القواطع والسدود، فلا تصل الجرائد فهى حرام، وعيب خطير أن يقرأ الراهب مجلة أياً كان نوعها، وغير مسموح بسماع المذياع مهما كانت الظروف.. حتى لو كانت هذه الظروف هى الحرب، أما التليفزيون فلا يدخل الدير بالمرة، ولا يسمح للراهب بمقابلة أصدقائه القدامى الذى يحضرون للدير خصيصاً لرؤيته، إلا إذا كان الدير سيستفيد منهم، فيسمح للراهب بمقابلتهم، بل والأكثر يفضل فى الدير عدم مقابلة الأهل لأنه وكما علمونا أن الحنين للأهل يجر الراهب إلى الخلف ويتملك الحنين من قلبه وتفكيره فلا يستطيع العبادة أو التفكير فى الله.. نعم، إلى هذه الدرجة بلغ وتبلغ قسوة الدير وقوانين الرهبنة.

ولكن كيف يجردوننا من المشاعر الإنسانية والمسيح نفسه مثلهم ومثلنا الأعلى غير مجرد منها، فحينما ذهب لإقامة عازر من الأموات، بكى يسوع على القبر، ومهما فسروا بكاء المسيح على هواهم فلن ينكروا أن له مشاعر إنسانية دفعته إلى البكاء، وحينما كان على الصليب يتمزق وينزف ويلفظ أنفاسه الأخيرة

أوصى تلميذه يوحنا ـ الذى كان يتكىء على صدر يسوع ـ بأمه، قال له: «يا يوحنا هذه أمك.. يا امرأة هذا ابنك».. ومنذ ذلك الوقت أخذها يوحنا إلى خاصته وضمها إلى أهله.



قبل دخولى الدير.. كنت متديناً جداً أتوق للحياة الدائمة مع الله، وحين كنا طلاباً بالجامعة كان لنا صديق بالمدينة الجامعية يتردد على الأديرة ويعرف الرهبان ويأتى لحجرتنا ليقص علينا بعضاً من الطرائف التى حدثت له مع الرهبان، ويفيض فى وصف عطفهم ووداعتهم وتسامحهم.. وكم هى عظيمة أعمالهم وكم هم قادرون على الحياة مع الله بلا زاد دنيوى، كان قلبى يضطرم بكلماته ناراً لرؤياهم ويصطلى شوقاً للتعرف عليهم، فقد كان للرهبنة بريق خاص لايمادله أى بريق فى الحياة كلها.

وفى العطلة الصيفية كنت أقضى كل وقتى فى الدير أعمل بلا أجر، يقابلنى الرهبان ببشاشة ويعاملوننى بلطف كبير ومودة غير عادية، ولذا كنت أحرص على أن أكون بالدير فى اليوم التالى لليوم الذى أجتاز فيه امتحان آخر مادة.

وحينما كنت أغادر الدير إلى الجامعة كنت أغتم جداً وأحس بالأسى والحزن لفراق الرهبان والمكان الذى أحب، لم أكن أودعهم خوفاً من ضعفى ودموعى التى كانت تسبقنى أمامهم،، ولكن الحال تبدل كثيراً حينما ذهبت للترهبن، فقد تصادمت بعد أيام قلائل بأحد المسئولين عن اختيار المتقدمين للرهبنة، كان الخلاف بسبب سؤال بسيط منى هو: «لماذا لاتقبلون للرهبنة إلا المؤهلات العليا؟»، وما إن خرجت الألف الأخيرة للعليا من فمى حتى انفجر الأب غاضباً صائحاً ملوحاً مهدداً: «أنت لك أفكار غريبة!!، واتجاهات مشكوك فيها، أنت لا تصلح للرهبنة فى ديرنا، ابحث لك عن دير آخر».

أدركت لحظتها أن لى أفكاراً وللدير أفكاراً أخرى، صدمت من رد فعل الأب ومن طريقته واستبداده مما جعلنى أكتب للأب الروحى وأعلن له عن بعض أفكارى وكانت هذه بعضها ومن واقع ماكتبت:

«إننى قدمت للرهبنة للعشرة مع الله وبدافع الحب الذى أحسه فى قلبى لجلاله، وأنا لا أطمع فى شىء من وراء الرهبنة، لا فى زيها ولا فى كرامتها، ولو وقفت الرهبنة عند حد الزى والكرامة لصارت كريهة فى عينى».

اعتبر الأب الروحى هذا الأسلوب خروجاً عن الأدب فى مخاطبته فشكانى لكل من قابله، جلعنى هذا أشك فى نفسى.. هل أنا على حق أم أخطأت فى حق الرهبنة والأب الروحى، جفت معاملة الرهبان معى وتحولت بشاشتهم إلى عبوس، وأدركت أنى مرفوض من الجميع وأن لى قدماً «داخل الدير ليتنى فقدتها» وقدماً خارجه، لكنى سعيت جاهداً لأن أدخلها. وكان علىّ بالإذعان والطاعة حتى وإن لم أكن مقتنعاً.. فقد كنت أحلم بالترهبن!!



وقبل أن يستقر بى الحال سمعت أن صديق المدينة الجامعية بعد التخرج ذهب للالتحاق بأحد أديرة البحر الأحمر، وفى فترة الاختبار الحقوه بالمطبخ، وذات يوم انفجرت فيه أنبوبة بوتاجاز صغيرة، فاشتعلت النار فيه ولفوه بالأقطان، وكان جلده يتساقط وبعد ثلاثة أيام توفى متأثراً بجراحه، وحزنت لشبابه فقد كان ممتازاً بمعنى الكلمة وفرحت له إذ اعتبرته آنذاك شهيداً.

كان هذا الحادث تدبيراً من الله ليقصر أيامه وسنينه فى الرهبنة، ارتاح صديقى فقد أشفق عليه الله من الويلات التى كان سيلقاها، أتته النيران دفعة واحدة فاستراح.. لكنى كنت أحترق بالنار كل يوم، مات صديقى دفعة واحدة ولكن الموت الأسود البطىء كان يلتهم أعضائى ونفسى وروحى كل حين.

وظللت أصارع نفسى.. كنت أقول لها.. يالى من بائس ليتنى خرجت بعد صدامى معهم أو ياليتهم طردونى، ولو كان للأيام أن تعود للوراء لتركت لهم الدير هارباً عارياً حتى من ملابسى، ولأدميت قدمىّ ومزقتها حتى لاتخطو خطوة تجاه الدير، بل لمزقت قلبى حتى لايحب ولا يفكر فى الرهبنة، لقد علمتنى تجربتى فى الدير أن هناك أخطاء بسيطة تدفع ثمنها فى الحال وتنساها، فثمنها غير مكلف،

وهناك أخطاء كبيرة تدفع ثمنها طوال العمر، وربما تدفع حياتك ثمناً لها ولا تستطيع أن تنساها أبداً.

◆◆◆

ومع انى كنت أحب الرهبنة وأعشقها، وحتى قرارى بدخول الدير استغرق تفكيرى لمدة خمس سنوات، وأعتقد أنها مدة كافية لاتخاذ مثل هذا القرار، ولكنى خُدعت..

«فديرنا كان يشبه عذراء جميلة جداً. ينم منظرها عن العفة والقداسة، سألت عنها فوجدت جيرانها يمدحونها، وأهلها يطوبونها، فالتهبت شوقاً للاقتران بها وتزوجتها، وكانت المفاجأة انها امرأة فاجرة عاهرة سرعان ماتحولت إلى أخطبوط يلف أذرعه حول عنقى ويشل حركتى، فلم أستطع حتى الصراخ.. وأخيراً التهمنى التهاماً».

◆◆◆

ورغم أهوال ما رأيت...

لكنى ظللت على أفكارى.. فقد كنت مُحقاً فى سؤالى عن مؤهلات الراهب.. فعلم الله ونعمته لاتتوقف على نوع شهادة الدراسة، فمؤسس الرهبنة أنبا أنطونيوس وكبير وعظيم الرهبنة أنبا مقاريوس ومعظم - إن لم يكن جميع - الرهبان فى الجيل الأول «القرن الرابع» كانوا أميين لايعرفون حتى مجرد القراءة والكتابة(*).

تبدلت معاملة الرهبان معى كثيراً.. وكان سؤالى هو السبب فى الصدام، وعندما كنت تحت الاختبار تحدث إلىّ راهب مرتين وذكر أشياء سيئة عما يحدث فى الدير، كان يبادرنى بقوله سوف تفهم كل شىء حينما تدخل المعمعة.. وكان السؤال الذى يقتحم رأسى هو.. وهل فى الدير معمعة؟! لم يجبنى أحد على السؤال فقد أجابتنى الأحداث والأفعال.

(*) المعلومة من كتاب «بستان الرهبان».

كُلفت بالإشراف على العمل بالمخبز وأنا تحت الاختبار، تعلمت العجين والخميرة والخبيز وكل شيء، صرت خبازاً، وتوليت مسئولية إدارة المخبز وتوزيع الخبز.. كان العمل بالمخبز مرهقاً شاقاً يبدأ فى السادسة والنصف صباحاً وينتهى فى التاسعة أو العاشرة مساءً بالنسبة للعمال، أما بالنسبة لى فكثيراً ما كان يمتد إلى الواحدة أو الثانية صباحاً، لأنى كنت أقوم بتحميص كمية من الخبز.. وكان الهدف من تحميص الخبز هو تخزين كمية منه يستفاد بها فى حالة عدم التمكن من الخبيز لأى سبب، وكنت مسئولاً عن توزيع الطعام والشاى على العمال العاملين بالدير فى فترة الراحة (التاسعة صباحاً) وفى فترة الغداء.

بعد فترة عُين الأب «م» رئيساً مباشراً لى، ومسئولاً عن المخبز والمطبخ والمائدة ومخازن التموين، وجمع الأخوة تحت الاختبار، وقال لنا إن الأب الروحى اختارنى بالذات كى أكون وسيطاً بينكم وبينه لطول السنين التى قضيناها معه.. ونقل ما قاله الأب الروحى «سلموا الأخوة ماسلمتكم إياه»، والتسليم فى الأديرة يعنى التعليم، تعليم أى شيء وكل شيء.

كان الأب «م» مهندساً كيميائياً كما سمعت، ضخم الجسم فارع الطول عريض المنكبين، تبرز بطنه فى شبه نصف بطيخة كبيرة (وعلى فكرة عيب كبير فى الرهبنة أن يكون للراهب كرش) يتحرك فتهتز دهونه، لونه أحمر ذو رأس كبير ومستدير ولحيته تميل للاصفرار، له شارب طويل يغطى شفته السفلى، وأما حواجبه فكانت لاتثبت لحظة فى مكانها فهى تترافص وتلعب على نغمة كلامه، إذا تحدث ينحنى ويستقيم ويرفع ذراعيه تارة ويخفضهما أخرى ويجسد معانى ألفاظه بأصابعه ، يوسع عينيه ويضيقهما وأحياناً يغمضهما، يتحدث بسرعة ويتوقف لحظات ليعود ويسترسل، كان ممثلاً..

«كان الأب «م» كالمرأة اللعوب.. يفيض لسانه بالأمثال الشعبية.. وكان الأحرى به أن يستشهد بآيات من الإنجيل أو أقوال الأباء القدامى أو بستان الرهبان».

كان حساساً لكرامته غاية الحساسية، فعنده أن تكفر بالله ولا تجرح كرامته ولو بشعرة ولو من غير قصد فالدم ينط من وجهه والشرر يتطاير من عينيه،

ولسانه ينهمر كالهراوة الثقيلة على رأسك وذراعيك وساقيك، فلا تدرى من أين ولا كيف تتحاشى الضربات، كان متكبراً متعجرفاً يدعى المعرفة وهو أجهل من دابة خاصة فى الشئون الروحية فقد كان الرجل أجوف لا قراءة ولا صلاة، ورغم ذلك فكثيراً ما كان ينصحنا بالتواضع وإنكار الذات بدعوى أن الذات والكرامة هى العدو الأول للحياة الروحية!!

◆◆◆

وعجيب أمر الرهبان هذا، فأنا أناشد العلمانيين أن يعطفوا عليهم ويأخذوا بأيديهم ليخرجوهم من ورطتهم التى زجوا بأنفسهم فيها، ورطة الازدواجية التى يعيشونها، فهم ينادون بشيد ويفعلون غيره، وهى ظاهرة لم تكن فى ديرنا فحسب بل فى جميع الأديرة دون استثناء..

«الرهبان عندنا يهوون الازدواجية ويعشقونها ويتقنونها إلى الدرجة التى لايحسون فيها بأنفسهم كالذى يكذب ويصدق أكاذيبه»..

كان الأب «م» عبداً للنظام متفانى فى الدقة وهو فى ذلك تلميذ جيد للأب الروحى، أمرنى بعمل دفتر «الأستاذ» ولم أكن أعرف أو أسمع بدفتر الأستاذ من قبل.. طالبنى بتقييد أجولة الدقيق - كمية السولار - كمية الخبز المحمص المخزون - عدد الخبز الذى أرسله لمائدة الرهبان - عدد الخبز المرسل لمطبخ العمال والمرسل لإطعام الضيوف بالخبزة.. علماً بأن حجم الخبزة لاتزيد على كفة اليد.. وكان يوصينى بأن ضياع نصف خبزة يعتبر إهمالاً جسيماً وسوف أحاسب عليه يوم القيامة، ازداد علىّ العمل، وكانت الدقة الشديدة للأب «م» تعوق حركتى خاصة أنى كنت أعصر ذهنى كى لا تضيع نصف خبزة.. ولم أكن أسأل عن شىء.. فليس لى حق فى ذلك.. ألم أسأل سؤالاً من قبل تسبب فى كارثة؟!

«ولو كان النظام والدقة بدافع الحفاظ على مؤنة الدير وأمواله لهان الأمر واستطعت مسايرته، ولكن الدقة والنظام كانتا ظاهرتين مرضيتين صادرتين من نفوس مريضة، كالمرأة المريضة بالنظام والنظافة، بيتها مرتب ويلمع وما أن يصدر من الزوج أو من أحد

الأولاد ما يكسر النظام حتى أعلنت عن غضبها وحولت الحياة إلى جحيم، ويصبح حبها للنظام كارثة على من يعيشون معها»

وهكذا كان حال الأب «م» معى، فإن حدث وأخطأت فى حساب عدد الخبز مثلاً.. يعطينى محاضرة طويلة عريضة، يتعدى صياحه أسوار الدير إلى خارجه، كنت أتلقى مايزيد على محاضرتين أو أكثر يومياً حتى تأزمت نفسى!! كان يغيظنى بسؤاله عن الخبز.. كنت أقول لنفسى أين يذهب الخبز ألا يُؤكل فى الدير؟! هل أتناول أكثر من طعامى؟! أو هل أرسل هذا الخبز لأهلى الذين انقطعت عنهم نهائياً وتبعدنى عنهم مسافة أربعمائة كيلومتر؟ أو هل لى مخازن خاصة أملأها بالخبز المسروق وقبل موعد الجرد أقوم بحرق المخازن كما أسمع الآن فى المسلسلات.

كنت أناجى الأب «م» قائلاً: أيها الأخ المريض.. أتكون أميناً لا تُضيع نصف خبزة وتضيع نصف ساعة فى توبيخى، أتعز عليك قبضة من دقيق ولا يعز عليك حرق أعصابى وأعصابك؟ وأية أمانة هذه التى تؤدى بى إلى التأزم النفسى، أتضحى بالإنسان من أجل المادة المخلوقة من أجله، أى إنجيل يقرأ هذا الأخ الأحمق؟!



وعندما حل موسم الصلصة (معجون الطماطم)، حلت بى جميع الويلات، وأضيف إلى عملى أعمال الأشراف على العمال الذين كان يصل عددهم ثمانية، يقومون بفرز وعصر الطماطم نهاراً، وما يتبع ذلك من التفريغ والنظافة وإطعام العمال، وتجفيف هذا العصير ليلاً بعد الساعة التاسعة مساءً حتى الثانية صباحاً.

فى هذه الفترة كان الأب «م» يتفرغ لى تماماً، كانت أيام سوداً سيئة فى حياتى، حجم العمل كان هائلاً فقد كانت المساحة المزروعة بالطماطم سبعين فداناً (يُباع منها مايباع والباقى صلصة).

وبين يوم وليلة زاد إرهاقى فى موسم الصلصة، فقد كنت مازال أعمل فى المخبز وحتى العمال الذين كان يرسلهم الأب لمعاونتى كانوا قلة وصغاراً، الأمر

الذى جعلنى أعجن بنفسى وأقف أمام النار للخبيز طوال اليوم وأساعدهم فى حمل أجولة الدقيق وكنس وتنظيف المخبز، ولم يكن دافعى الأمانة (لعن الله الأمانة التى على طريقتهم) بل الخوف من عدم إنجاز العمل اليومى ثم عطفى على العمال الذين كنت أحبهم من كل قلبى.

كان المسئول عن العمال - والذى يزيد عرضه عن طوله مرة ونصف جامداً قاسياً، كلماته قليلة وإجاباته مقتضبة وقراراته لا رجوع فيها، كان بخيلاً مقتراً على العمال لأقصى حد.. كان يريد أن يقتطع من لحم العمال ليعطى للمسئولين الكبار والأب الروحى، أما الرهبان الصغار والأخوة فكان يذيقهم شر العذاب، فقد كان يكفى من المسئول عن الحظيرة أن يتصل به تليفونياً ليرسل له خمسة عمال، أما أنا الذى أترك عملى باكراً وأذهب ساعة توزيع العمال وأنتظر الأب حتى يتعطف علىّ وأتوسل إليه حتى أكاد أقبل أقدامه لأجل عاملاً واحداً، فلا أجد منه إلا الرد الجاف القاسى، وبينما يرسل خمسة عمال للحظيرة أعود أنا للدير بدون عامل واحد.

كنت أكرر هذه المذلة التى كسرت قلبى وأعماقى كل يوم، وعندما كان يفيض بى كنت أكتب للأب الروحى الذى كان يكتب على نفس ورقتى للأب «ق» بأن يرسل لى عمالاً أكثر، وأذهب للأب «ق» الذى كان يتناول الورقة ويمزقها، ولو كنت غير مؤدب لأبلغت الأب الروحى بفعلته وكان من الممكن أن ينزل الأب الروحى له فى اليوم التالى ويمزق وجهه أمام جميع الرهبان، فجريمة ألا يسمع راهب للأب الروحى، فما بالك بالذى يمزق ورقة كتب فيها أمراً بيده، الغريب أن الأب «ق» لم يكن يرسل العمال للمسئولين احتراماً لهم أو حباً فيهم، فهو لايحترم أحداً كما أنه ناقم على جميع الرهبان.. لكنه كان يرسل لهم العمال خوفاً من شكواهم للأب الروحى.

وذات يوم أعادنى الأب «ق» بدون عمال وتمزقت نفسى من الداخل، ودخلت المخبز ووجدت نفسى بجنون أندفع كطلقة مدفع فأصطدم بطاولة وأسقط بعنف على الأرض.. كنت كمن يريد أن ينتحر ويخلص نفسه من هذا العذاب الذى يلاقيه ليل نهار.



كنت أسأل نفسى كثيراً.. هل تبعيتى للمسيح أدت بى إلى الجنون؟ ثم لماذا لا اتخذ قراراً بالنزول فوراً للعالم وأترك الدير اللعين.. فأعود لبلدى وأمى وأهلى وأصدقائى وتلاميذى فى المدرسة وأبى؟ ما الذى يمنعنى من العودة إلى حبيبتى التى تركتها حباً فى الله والرهبنة فأتزوجها؟ كلمة منها كانت تشفى جروحى وتطيب نفسى.. ليتنى عدت..

لكنى لم أعد .. لم أترك الدير!!

◆◆◆

غلبنى النعاس والإرهاق فنمت وأنا جالس فى انتظار جفاف بخار الماء من صوانى الصلصة الموضوعة داخل الفرن، فاحترقت اثنتان منها، ووقعت تحت أنياب الأب «م»، زمجر واتسعت عيناه وصاح بى فى عنف، وإذا بى أقابل صياحه بصياح أشد وأعلى دون أن أدرى ما الذى دفعنى لذلك.. فقد كانت نفسى مشحونة وصرخت فيه..

«تلومنى لأجل ما احترق.. ونحن نلقى عشرات الكيلوات فى الزبالة كل يوم.. انا لم أنم منذ بداية هذا العمل سوى ساعتين أو ثلاث يومياً.. ألست امام عينيك أسهر حتى الثانية صباحاً وأدق جرس الكنيسة فى الثالثة واذهب للكنيسة فى الرابعة وأخرج منها للعمل من السادسة والنصف حتى الثانية صباح اليوم التالى.. ألا يشفع لى كل هذا العمل والإنتاج، وهل المطلوب منى أن أعمل وأنتج دون أن اخطىء ولو مرة واحدة.

ثم أين المحبة وأين الرحمة، وأين قولك كل يوم أن الأب الروحى أوصاكم أن تسلمونا ما استلمتموه، إننى لم أر منك شيئاً يستحق الاستلام، إننى لم أر سوى الصياح والغضب والخلاف الدائم».

كانت المرة الأولى التى أصيح فيها فى وجه راهب يكبرنى، وهذه جريمة فى الرهبنة، أما صياحه هو فيمتبر تعليماً وتهذيباً، وكان علىّ أن أعترف بجريمتى لأب الاعتراف، وأحياناً يكون أب الاعتراف غير الأب الروحى ويكون بتكليف منه.. وإن كان يمكن اللجوء للأب الروحى بالرغم من وجود أب اعتراف.

بعد أيام ذهبت للأب «ق» أطلب منه عمالاً فتغير وجهه ووجدته يقول لى: أنت عنيف وقد ترك الأب «م» الإشراف على العمل بالمخبز بسببك.. لم أكن أعرف فقد فوجئت بالخبر، صحيح أن أبانا «م» تغيب عدة أيام ولكنى كنت أتوقع عودته فى كل وقت، المهم أننى حصلت على أربعة عمال دفعة واحدة.. ربما خاف منى الأب «ق».. ربما.

والآن أقول إن الأب الروحى كان يدرك تمام الإدراك أن الأب «م» خاوٍ وليس لديه شىء يعمله، ولكنه وضعه ليكون عيناً علىّ ليراقب سلوكى لحظة بلحظة، فما دمت صاحب فكر فلابد من تشديد الرقابة علىّ، وعليه فقد كان الأب «م» يعتبر نفسه من مجلس قيادة الثورة.. فهو مركز قوة وعليه أن يحافظ على الثورة ومبادئها بكل الطرق مشروعة وغير مشروعة.



كنت أسأل نفسى: وهل فى الدير عيون؟!

وكنت أقول: ليس ذلك غريباً فكل سلطة لها عيون تعمل لحسابها، وهاهو الأب الروحى يحكم ويتسلط ويخاف كل الخوف أن تمس سلطته ولو بشعرة أو أن يهتز كرسى عرشه بفكر غير فكره.



لم أهنأ بالعمال الأربعة فقد جاء الأب «ز» المشرف على زراعة البطيخ وأخذ اثنين منهم بتوصية من الأب «ق»، واشتعل غيظى فلديه مايزيد على الـ٣٠٠ عامل وجرارات ولوادر ومواتير رش، وكل الدير فى خدمته، أليس هو الذى يزرع مايزيد على ٣٥٠ فداناً بطيخاً، ورفضت إعطاءه عاملين بعد الحدة والغضب من كلينا.. وانصرف قائلاً: «أنت مش مطيع».

هناك مصطلحات ليس لها مفهوم محدد، فالطاعة عندى تقف عند حدود استطاعتى وهذه الحدود غير محددة، فاستطاعتى أثناء الراحة غير استطاعتى وأنا متعب، واستطاعتى فى نشاطى الروحى غير استطاعتى فى فتورى الروحى، والطاعة عند أبونا «ز» هى الاستبداد علماً بأنه لم يكن لدى فائض من العمال.. فقد طلبت ٦ عمال فأخذت ٤ فقط.. فأين الفائض إذن؟

وكم من مرة شكا الأب الروحى من عدم طاعة الأب «ز» ولكنى أقول إن هذا الراهب من أكثر الرهبان الذين يعملون لصالح الدير والعمل والإنتاج به، فهو يشرف على زراعة ٥٠ فدان كانتلوب وشمام إسماعلاوى، ومن ٥٠ إلى ٧٥ فدان طماطم بالإضافة إلى البطيخ، فهو لايرتاح شهراً حتى يعود ويمهد الأرض للزراعة، الآن ألتمس له العذر فى غضبه لأنه كان يقوم بأعمال لا تتحملها سوى الجبال.



كان الأب الروحى فى البداية يقرب إليه ويحب من كان سباقاً فى الفضيلة، ولكن من المؤكد أنه بعد زيادة نشاط الدير أصبح يقرب ويحب من كان ذا موقع حساس فيها فكلما زاد إنتاج الراهب المادى كلما أحبه الأب الروحى..

> «فثمن البطيخ الذى يتحول إلى دولارات والتى تُودع فى البنك فى حساب الدير يميز راهب البطيخ.. ولكن هب أن أن هذا الراهب نفسه لم يستطع القيام بأعماله هذه لأى سبب كان.. حتى لو كان هذا السبب الصلاة أو العبادة أو المرض أو الإرهاق أو التعب النفسى، لوجد معاملة ليست سيئة فقط بل أسوأ من السوء ذاته.. وتصور أن الإنتاج والعمل طوال العشر سنوات التى قضيتها بالدير هو مقياس صلاحية وأفضلية الرهبان».



اتصل بى من المزرعة الأب المسئول عن المطبخ فلديه عجز فى الخبز ويريد كمية منه، كما أنى كنت أريد تسوية أمر ما معه، وخارج المخبز وجدت الأب «م» يدير السيارة التى أعطاه إياها الدير وقال لى: سوف أذهب للمزرعة وأعود مباشرة، فقلت: هذا ما أطلب، وأثناء الذهاب معه (المزرعة تبعد عن الدير ١,٥ كيلومتر) نشبت بيننا معركة كلامية، وقبل نزولى من سيارته قال لى: ابحث لك عن سيارة أخرى فأنا لن أعود الآن، جن جنونى فأنا لا أستطيع الغياب عن المخبز كثيراً وخاصة أن نيرانه تشتعل، والأولاد صغار بالإضافة إلى ماكينة

العجين الخطيرة، فهى من النوع القديم المكشوف والأب «م» يعلم كل هذا، ونزلت من السيارة ساعتها كنت أتمنى لو أزحت السيارة وسائقها إلى الجحيم.

أغلقت الباب خلفى بغضب.. وسألت نفسى ماذا أفعل هنا.. لكنى لم أكن أجد إجابة مقنعة على سؤالى.

◆◆◆

كنا نخشى نحن الأخوة تحت الاختبار يوم السبت، فهو اليوم المخصص للاعتراف، وياويلنا من أب الاعتراف، كان طويلاً ذا ذقن نحيفة تميل للبياض، وبالرغم من كبر سنه إلا أن وجهه كان يلمع وكأنه يدهنه كل صباح بزيت عباد الشمس، كان الرجل يعتبر من أكبر الشخصيات المهمة والمسئولة فى الدير، وكان ذا طبع حاد عنيف، يستطيع أن يبكتك ساعة كاملة على هفوة بقصص وحكايات لا تنتهى، كان متزمتاً شديداً جافاً فى معاملته وأقواله إلى الحد الذى كرهنا فيه الحياة الرهبانية، وذات مرة قلت له صراحة:

«يا أبانا.. كانت الحياة الروحية ونحن فى العالم أسهل بكثير منها هنا فقد كانت المحبة والود صبغة علاقتنا ببعض وبالكنيسة وبأب الاعتراف..».

لم يحدثنا قط عن حب الله لنا، ألم يمت المسيح ويبذل نفسه من أجلنا؟ ألم يكن المسيح متجاوزاً عن خطايانا وغافرها لنا حتى ولو تكررت؟ ووجدتنى أقول له مرة ثانية:

«إننى يا أبانا لم أسمع منك كلمة رحمة الله.. أين الرحمة؟.. إن كل التعاليم تنحصر فى الجهاد الروحى والنسك الزائد وإماتة الذات.. وأنه بكثرة عذابنا وآلامنا فى الأرض يكبر نصيبنا فى السماء.. ألستم أنتم القائلين إن المسيح صُلب كى يظل فاتحاً ذراعيه ليقبل جميع الخطاة والآثمين؟».

تغيرت ملامحه وأصبح ليناً بعض الشىء.. لكنه فى المرات التالية كان أشد عنفاً.. لقد عرفت الحقيقة كاملة..

«فمسيح العالم غير مسيح الدير، الأول رقيق جداً ستر على خطايا وعيوب الكثيرين، لم يفضح الزانية التى أمسكت فى ذات الفعل، ولم يحكم عليها، بل لكى يخلصها من الذين حكموا عليها وارادوا قتلها قال لهم فقط أول من يرجمها بحجر لابد أن يكون بلا خطيئة.

وضرب مثلاً أنه هو راعى الخراف الذى يترك الغنم كلها ليبحث عن الخروف الضال ولذلك أحببناه، فى ضيقنا وقف إلى جوارنا فى أعوازنا وحاجتنا طلبنا منه فأعطانا فى امتحاناتنا، ساعدنا ونجحنا.. كان مسيح العالم عوناً ورفيقاً.. أما مسيح الدير فهو مسيح النسك والجهاد والعنف، مسيح الإرهاق والمعاناة، مسيح عدم الحب وعدم التسامح، مسيح التماسيح التى تبتلع صغار الرهبان، مسيح المصادمات والحوادث والنار والكبريت والحديد.. لعن الله مسيح الرهبنة».

كنت أعلم مسبقاً ماسيكون فى جلسة الاعتراف بعد تصرفاتى، فقد كان أب الاعتراف عنيفاً قال لى: أنت تحتاج إلى تغيير.. أنت عنيف وطبيعتك قاسية.. إذا كانت هذه الأعمال تصدر منك وأنت مازلت أخ تحت الاختبار فماذا بعد الترهبن «سوف تنط فى بطن الرهبان».. هكذا قالها..

وللأسف الشديد اقتنعت بكلامه.. رغم أنى لم أكن قاسياً أبداً فى العالم، بل كنت محبوباً غاية الحب.. وطيباً غاية الطيبة، كنت حساساً رقيقاً لا يهدأ لى بال إذا أحسست أنى أسأت لإنسان ما.. ولكن الدير كانت له خطط جهنمية لتحويل مسار الإنسان، فتحت هول مارأيت من الضغط الهائل من الأعمال والمصادمات لا أستطيع أن أكون حليماً أو وديعاً أو أضبط غضبى، وبالفعل أقنعونى أنى غير صالح للرهبنة.

وهكذا كانوا يفعلون مع بقية الرهبان، فإذا اشتكى راهب أو قل نومه أو تذمر أو صاح أو هاج أقنعوه أنه مريض نفسياً، ولابد من علاجه. ويأتى الدكتور «ر» من حلوان (مستشفى «بهمن») ليكتب له المهدئات فيعتادها الراهب ويدمنها، وبعدها يجرونه ويسوقونه كيفما شاءوا.. ولايستطيع هو الفكاك منهم فمن سيعطيه هذه

الأدوية إن ترك الدير، وكيف سيواجه العالم بنفسية مريضة، ويظل عبداً ذليلاً للدير طوال حياته. فلا يتركه الدير إلا جثة جفت دماؤها وتحولت عظامها إلى رماد.

لن أكون مبالغاً إذا قلت إن أكبر نسبة مرضى نفسيين فى أى مجتمع فى العالم هى فى الأديرة، فبينما تبلغ هذه النسبة فى المجتمعات العادية ٢ أو ٣٪ تبلغ فى ديرنا ٢٠٪، أى خُمس الرهبان على الأقل.

◆◆◆

كان عمرى خمسة وعشرين عاماً عندما التحقت بالدير، وكان عدد السنوات التى قضاها أب الاعتراف فى الرهبنة هى ثلاثين عاماً، أى كان راهباً قبل ولادتى بخمس سنوات، وحينما كنا نتردد أثناء دراستنا الجامعية على الدير، كان الرهبان يشيدون بهذا الراهب الذى كان متوحداً حينذاك..

> **«والوحدة هى غاية الرهبنة.. وكان الأب الروحى يدعى أنه يخلق جيل متوحدين يقودون الرهبنة التى سوف تنتشر ويزداد عدد الرهبان فيها إلى الآلاف كما كانت فى القرن الرابع والخامس، ويكون هو رأس وأب هذه الجموع الغفيرة كما كان أنبا باخوميوس، فالوحدة هى الاتحاد بالله حياة الصلاة التى لا تنقطع، حياة ترديد الأيات والتمعن فيها، حياة السكون والصمت وترك الكل للالتصاق بالواحد.. الحياة التى اشتهر بها رهبان وادى النطرون فى القرون الأولى للرهبنة».**

كنا نتوق لرؤية هذا الراهب، وفى العام التالى سمعنا أن هذا الراهب ترك الوحدة فسألت عنه أنا ورفاقى فقد كان نزوله خيبة لنا، فأجاب الذين أشادوا بوحدته بإشادة أكبر لتركه الوحدة.. قالوا لقد رأى أن العمل ثقيل على الرهبان فترك عُليةُ التجلى لكى يشارك أخوته أتعابهم وآلامهم وضحى بلذته وسعادته الروحية كى يخلط عرقه بعرقهم ودمهم بدمائهم.

نعم فقد كانت للرهبان قدرة على إقناعك بالشىء ونقيضه فى الوقت نفسه.



وقد ترى أن مايحدث فى الدير شيئاً عظيماً..

فكل عرق مبذول هو زيادة فى الإنتاج، وكل يد يتم تشغيلها تقلص حجم البطالة.. وبذلك يعم الخير أبناء الوطن، فقد بلغت كميات البطيخ التى تم تسويقها يومياً إلى مائة طن، وطرح هذه الكمية يومياً كان يخفض الأسعار ولو بكسر عشرى صغير جداً، ومايحدث مع البطيخ يحدث فى البيض وفى الألبان والفواكه.. أما فى الزيتون فكان إنتاج الدير من أكبر مايمكن، وفى مجال الأبحاث العلمية الزراعية مثلاً فالدير كان أول من زرع الزيتون من الفروع وليس من الجذور بعد تغطية رأس العقلة بالشمع لتقليل النتح ومعالجة أسفلها بالهرمونات لإخراج شعيرات جذرية، والدير زرع عقل العنب، فكانت نسبة النجاح أكثر من ٩٠٪، ومركز البحوث كانت علاقته بالدير قوية جداً، فقد تمت زراعة الكركديه والزعتر والكمون والشمر لاستخراج الأدوية.

كما تمت زراعة البطاطس والقمح والقطن فى الأرض الصفراء وكانت النتائج مذهلة، فقد استطاعت الأرض الصفراء بالجهد والعناية والأمانة أن تقدم محصولاً أكثر من المقدم من الأرض السوداء على ضفاف النيل، وقد حضر وزير الزراعة يوسف والى إلى الدير أكثر من مرة وصافحنا هناك..

أما فى الإنتاج الحيوانى، فلدى الدير حوالى ألف رأس من الأبقار وستمائة رأس من الأغنام، وأول حلابة آلية دخلت مصر كانت لديرنا.. والأعظم من هذا عمليات نقل الأجنة فلم تكن ناجحة على مستوى الشرق الأوسط إلا فى ديرنا، والمفاجأة أن كل هذه الأعمال كان يقوم بها مائة راهب فقط.

كل هذا عظيم ورائع.

ولكن دعنا نتوقف قليلاً..

فقد كانت الزراعة وتربية الماشية فى البداية من أجل استبعاد الجيران (العرب) حتى لايزرعوا ولا يضعوا أيديهم على الأرض..

«هذا رغم أن هدف الرهبنة العبادة أولاً وأخيراً.. وحينما تقرأ للأب الروحى أو تسمع عظاته تجده يمجد العمل الروحى (العبادة) ويرفعه على العمل المادى حتى ذهب فى إحدى عظاته إلى أنك إذا

دخلت للصلاة فأنت تحول الوقت الميت إلى وقت حى وتحول التراب إلى ذهب، وكم نادى بأن وجود الرهبان فى العالم يرفع غضب الله عن هذا العالم - لأجل أيديهم المرفوعة فى الصلاة.. لكنه - ومع ذلك - كم من مرة ثار وغضب لسماعه ان الراهب فلاناً اعتكف يومين او ثلاثة للعبادة وترك العمل، كان يصفه بعدم الطاعة، أما الراهب الذى يعتكف أكثر من هذا ويدون إذن فكان يعتبره مجرماً ويصرح ويلمح (بفرز) هذا الراهب. وهى كلمة رهبانية معناها مقاطعة جميع الرهبان له وعدم التعامل معه نهائياً فيعزلونه إضافة إلى عزلته، وقد طبق هذا الفرز على راهب كان زميلاً لى بالجامعة فى نفس القسم (رياضيات)، وذهبت استأذن رئيس الدياكونية لأحمل له الطعام فوافق على مضض».

كنا إذا أهملنا أو قصرنا فى العمل يفضحنا الأب الروحى أمام كل الرهبان والعمال، أما إذا أهملنا أو قصرنا فى العبادة فلا ثورة ولا غضب ولا حتى مجرد لوم، بل على العكس كان يشجعنا ويسمينا أبطالاً وأسوداً، وقد أطلق على راهب عمل بالحظيرة ليل نهار لقب الشهيد، شهيد وهو مازال حياً، وهذا الشهيد نفسه ترك الدير بعد ذلك وعمل بأحد فنادق القاهرة.

أما أنا فقد أطلق علىّ لقب الأسد، وهذا الأسد أثقلوه وضيقوا عليه وسجنوه وضربوه بقضبان من حديد فتقلص وصغر حجمه حتى صار جرزاً فسلخوا جلده وقشروا عظام جمجمته فهرب وهو بين الموت والحياة ونفذ بقليل من النفس فى رئتيه.

كان الأب الروحى يرفض أن يكون هدف الرهبنة العمل المادى فقط على أوراقه التى يؤلفها وفى عظاته التى يلقيها، أما فى داخله وأعماقه فكان العمل والإنتاج هدفه الأول والرئيسى.. وبسر هذا الإنتاج نال شهرته وجلس مع رؤساء الدول.. وكانت هذه هى ميزته التى حرص عليها، فكيف لايتمسك به وكيف لايحول الدير إلى جحيم عمل.. هل علمتم الآن سر الأعمال التى فوق طاقة البشر؟.. أظنكم علمتم.

وعن نفسى لم أكن أرفض أن يكون العمل والإنتاج هدفاً من أهداف الرهبنة، فالعمل هدف نبيل وسام.. ألسنا من أجل العالم وجدنا فى الأديرة وعملنا هو أن نصلى لأجل البشرية وصحتها وسلامتها وإطعامها، فماذا لو شمرنا عن ساعد الجد ووفرنا لقمة عيش لفم جائع.. ألا يكون هذا أحياناً أفضل من الصلاة، وإذا توصلنا بعقولنا وعلمنا إلى بحث ينفع البشرية ويرفع عن كاهلها الغلاء، ألا تكون هذه طريقة مباشرة لمساعدة خلق الله كما يقول القديس يعقوب بالإنجيل «إن كان أخ أو أخت عريانين ومعتازين للقوت اليومى.. فقال لهما أحدكم أمضيا بسلام استدفئا واشبعا ولم تعطهما حاجات الجسد فما المنفعة» (يع 2-15) أى لاتنفع الصلاة فى بعض الحالات بل الذى ينفع هو العطاء المادى.



فى أيامى الأخيرة بالدير تغيرت الأقوال، فمن أحاديث روحية عميقة إلى مشاحنات ومشاجرات وكلام عن العمل، ودخلت مصطلحات جديدة مثل الأمن الغذائى، أسعار اللحوم والأرز والسكر والدواجن.

والأمن الغذائى هو هدف قومى لمن يحبون بلدهم.. ولكنى أسأل هؤلاء: أين كان حبكم للوطن حينما توحدتم وانعزلتم حتى عن الرهبان؟ وأين هو الآن وأنتم تهربون إلى برج العرب فى أبراجكم الزجاجية التى شيدتموها بأموال كثيرة من عرقى وعرق زملائى الرهبان؟ وهل تحملونها فى حقائبكم إلى الغردقة للاستجمام والمتعة.

رؤساء الرهبنة ياسادة لايحسون لا بالبلد ولا بالفقير والمسكين، إنهم يحسون بأنفسهم فقط، فإن كان المجد من وراء العطاء فهم أسخياء.. وإن لم يكن فلا عطاء.. وكل بطولاتهم التى يدعونها تشدقات لا وجود لها إطلاقاً على أرض الواقع، فقد حول الأب الروحى ليس العمل الروحى فقط بل والعمل المادى أيضاً إلى سعى وراء المادة (النقود) سعى غير مسنود بهدف روحى أو إنسانى.

فكم من مرة رفض الدير رفضاً باتاً مساعدة الفقراء، وقد كنت بواباً ويأتى من هو فقير يطلب المساعدة وحينما أتصل بالإدارة أجد الرفض بل القسوة..

«إياك ان تدخله الدير.. أطعمه وحاول ان تصرفه».

كنت أتمزق بين توسلات السائل لأجل عملية جراحية لزوجته وبين قسوة الدير، ولم تكن للدير علاقة ببيوت الأيتام والأرامل، ولا سمعنا أنهم يدفعون لملجأ أو ساهموا فى بناء كنيسة ولا ساعدوا حتى العمال الذين بنوا الدير على أكتافهم.

وتلك كانت مأساة النقّاش..

كان شاباً صغيراً يعمل بالدير وأتته الفرصة للعمل بالحكومة فأوصوه بترك العمل فى الحكومة ووعدوه براتب أكبر وتأمين معيشة أفضل، ورأيناه أميناً فى عمله مرحاً ومحبوباً من الجميع، وبعد حوالى سبعة عشرة عاماً مرض النقّاش ولم يعد قادراً على العمل، زوده الدير بمبلغ صغير مرة واثنتين وعندما طلب المزيد ليصرف على علاجه وعلى زوجته وأولاده رفض الدير مساعدته..

بكى الشاب وقال لقد أفنيت شبابى فى خدمتكم.. ألم تعدونى بتأمين مستقبلى؟ لماذا لا تصدقون؟ فما كان من الدير إلا أن أبلغ الشرطة لكى تأتى وتخلصهم منه.. بل هددوه إذا عاد فسوف يلقى ما لا يحبه..

وما فعلوه مع النقّاش فعلوه مع النجار.. وكثير من الحرفيين الذين طردوا من الدير شر طردة.

● انتقام راهب

بعد مرور حوالى عام ونصف من وجودى بالمخبز، مر الأب الروحى فقال مخاطباً أحد الرهبان: «هذا الراهب مخلص ويعمل كثيراً».. كان يقصدنى.. فرحت فهذا التشجيع عالماً فى نفسى أن السماء هى التى أوصته بذلك.. أليس هو رجل وحى كما يقولون.

وبعد حوالى سنة أخرى.. سلّم علىّ الأب الروحى بحرارة وقال لى: «أشكرك يا أب لأجل مجهودك الضخم، أنت أسد وسوف أحتاجك فى عمل مهم عن قريب».. كانت هذه الكلمات كافية لإلهاب حماسى وشحذ إرادتى وعقد النية على إتمام هذا العمل حتى لو بذلت فيه آخر قطرة من دمى، وكان العمل هو مرافقة أحد الأباء فى العمل خارج الدير.

وبدأت المهمة خارج الدير..

كانت تربة الأرض التى تزرع فى الدير تربة رملية، والقليل منها طفلة حمراء، وللحصول على نباتات قوية ومحاصيل وفيرة يجب دعم هذه التربة بخلطها بتربة نيلية سوداء، ونظراً لوضع الدير ونشاطه الزراعى المتميز وعلاقته بأكبر المسئولين أخذ تصريحين لشراء آلاف من الأمتار المكعبة من الطمية التى كانت جسراً «سداً للنيل أيام الفيضان»، وذلك من قريتى الخطاطبة والترانة الكائنتين على حدود محافظة الجيزة.

وذهبت أعاون الراهب المسئول لجلب هذه الكميات بأسطول من السيارات، وأنجزنا العمل فى الخطاطبة، وفى السنة التى تلتها وكانت عام ١٩٨٥، ذهبنا إلى الترانة واستقبلنا العمدة فى منزله ورحب بنا، وعرض علينا أن نقيم عنده، ورفض الراهب ونصبنا الخيام على حرف النيل، لم يكن ترحيب العمدة بنا مصادفة، فقد كانت معظم الأرض التى سنجرفها مقابلة لأرض العمدة وتجريفنا مكسب له فسيضم الأرض المستوية بعد رفع ماعليها من أكوام طمى إلى أرضه.

استمر العمل حوالى شهرين بأسطول السيارات، وخلال هذه المدة حدثت مشادة بين الراهب المسئول وعمدة الترانة، وهى مشادة صغيرة لدرجة أنى نسيتها ونسيت السبب فيها، ولكن الراهب الحقود وضع فى قلبه أن ينتقم منه،

فكيف يهين العمدة قداسة الراهب وكرامته علماً بأن هذا الراهب بالذات كان بعيداً جداً بل ليست له أية صلة أو علاقة بالقداسة، ويعلم الله أنه كان على العكس تماماً.

وسألت نفسى: هل للراهب أن ينتقم..

«والإنجيل يوصى الجميع بعدم الانتقام.. لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء».

وإذا فكر أحد فى الانتقام فعليه أن يذهب ويعترف بهذا الخطأ ويندم على مجرد تفكيره فى الانتقام، كما أن القانون المعمول به فى ديرنا يجرد الراهب من أى حق (الراهب عليه واجبات وليس له حقوق) كما نص القانون، كما أن الراهب لابد أن يتنازل عن كل شىء، وأول هذه الأشياء كرامته «من تعاليم المبتدئين»، ولست الآن بصدد البحث فى صحة هذه القوانين ومناسبتها للواقع.. ولكنى بصدد صدق الراهب فى تطبيقها.

وقرب نهاية العمل كانت أوامر الراهب لسائق «اللودر» بعمد وضع الأحجار التى يعثر عليها داخل الطمية فى المكان المخصص لها، بل يضعها قريبة من أرض العمدة، ولم أفهم سبب ذلك خاصة وقد أرسل العمدة ينبه الراهب بوضع الأحجار فى مكانها المخصص، لأنه يصعب عليه رفعها، خاصة أن معظمها أحجار من الحجم الكبير التى لا ترفع بواسطة العمال، وليت الأمر توقف عند هذا الحد.

خطط الراهب أن تكون عودتنا للدير ليلاً (حمل الخيام وإعادة العمال)، وفى تلك الليلة كانت عيناه لهما بريق مخيف، وأمرنى بأن أتنحى جانباً وتنحيت عاقداً ذراعى فوق صدرى، أراقب الحدث، كان الراهب يركب تارة بجوار سائق اللودر وتارة عند قدميه معطياً إشارات العمل له، كان يتحرك بعنف كمن يحارب، كان يحفر أرض العمدة التى سويت وصارت صالحة للزراعة، ويضع الأحجار بالحفر ويغطيها بالطمية، نعم وضع له السم فى الدسم، أفسد الأرض وخربها، فظاهر الأرض قشرة سوداء وباطنها أحجار بيضاء لايمكن لجذور المزروعات أن تخترقها أو تتغذى عليها.

كانت مفاجأة لى.. فأين البر؟ وأين عمل الخير الذى تربينا عليه فى كتب المدارس وفى الكتب المقدسة والأديان السماوية؟ ما فعله الراهب جريمة بكل المقاييس.. فهو خرب الأرض التى تطعم الأفواه الجائعة.. فهل له بعد ذلك أن يرفع يده فى الصلاة طالباً أن يرفع الله المجاعات عن العالم.. ويده الأخرى تجلب المجاعات، أنطلب فى القداس الإلهى أن يبارك المسيح إلهنا الزروع والعشب ونبات الحقل لتنمو وتكبر ونحن نميت جذور الزروع ونبات الحقل؟

ماذا حدث لى؟.. أترك عملى كمربٍ فاضل ومحبوب من تلاميذى، ومدرس ناجح إلى أقصى حد، بل فوق الممتاز، فمازالت سيرتى الحسنة على كل لسان، وأدخل الدير كى أساعد عصابة الرهبان على ارتكاب الجرائم ضد البشرية جمعاء؟

أنخصب أرض الدير وندعمها على حساب أرض الوطن، أرض الفقير والأرملة والغريب والضيف، أرض أختى سوزان وفاطمة وأخى حنا ومحمد وأمى عزيزة وزينب، إننى أتمزق وأتدمر داخلياً، كتمت الأمر فى قلبى ولم أبح به لأحد على الرغم من أن العمدة اكتشف المصيبة، ووصلنى خبر بذلك.

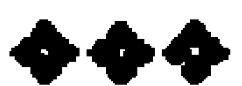
لماذا لم أتكلم؟ أهو خوف من هذا الراهب المتغطرس؟ ولمن أتكلم؟.. للأب الروحى الذى يوكل هذه الأعمال لذلك الراهب، وعندما كنت أشكو منه كان يرد علىّ: عليك بالطاعة والتحمل لأجل مصلحة الدير، هل كان كتمانى لأجل صورتى المثالية أمام الأب الروحى والرهبان؟ «الراهب الذى لا يشى بأحد ولا يفتن على أحد».. أم أنى يئست من الشكوى، فالأب الروحى كان لا يملك كبح جماح هذا الراهب بالذات ولا ردعه، فكثيراً ما تمرد عليه وضرب بكلامه عرض الحائط.

لكن.. ومهما كانت الأسباب لا أستطيع أن أبرئ نفسى، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، كتمانى هذا صار حجراً فى بطنى يوجعنى من حين لحين.. أصبح كالسرطان ولكن حجمه لايزيد ولا ينقص.. ولعله بكتابتى عنه الآن ينقص فأرتاح من العذاب والألم.

• مهزلة أبونا «انج»

كان الأب الروحى ينتدب راهباً يحل محلى فى المخبز أثناء عملى بالترانة، انتهى العمل هناك فأرسلت له أن يسند إلىّ عملاً، فكتب لى بأن أتوجه لحظيرة الدجاج، ثم انتدب راهباً آخر للعمل فى المخبز.. فجعل اثنين يقومان بالعمل الذى كنت أقوم به وحدى فى المخبز.

فى بداية عملى بالحظيرة أرسل أبونا «انج» يطلبنى من الأب الروحى للعمل معه، فطلب منى الأب الروحى معاونته، فسألته: نصف يوم أم يوماً كاملاً؟ كان سؤالى مفاجأة مفرحة رفع حاجبيه واتسعت عيناه وانفرجت أساريره وكأنه كان يبحث عن حل فوجد فى سؤالى الإجابة لما كان يبحث عنه فقال: نصف يوم والنصف الآخر للدواجن.



كلما كان موقع الإنسان ضئيلاً ومسئوليته صغيرة كلما كان خطؤه صغيراً وفى حدود مسئوليته، وكلما كان موقعه حساساً ومسئوليته عظيمة كلما عظمت أخطاؤه، لذلك يكون خطأ القادة الروحيين أو المتدينين جسيماً، ولاسيما أن المسيحية تلزم المسحيين بطاعة المرشدين فى الرب، وفى اعتقادى أنه لم يكن فى حسبانها أن المرشدين هم ذئاب الرعية يسرقون ويذبحون ويخطفون ويلعبون بمصائر الناس.

لقد كان حكاية أبونا «انج» مهزلة.. لم يروها لى إلا بعد أن استوثق من حبى الشديد له وقدرتى على حفظ السر، كان الرجل بريئاً كالطفل بسيطاً كالحمام، ينساب إلى أعماقك من أول لحظة، يسرقك حبه ولاسيما إذا نظر إليك من خلف نظارته السميكة بعينيه الخضراوين الجميلتين، يضحك ويهرج ويمرح دون كلفة ودون تعقيد.. كلما تراه تشعر أنه فى رحلة وأنه حتماً سيعود إن آجلاً أو عاجلاً، كان يحب الجميع ويحبه الجميع.



كان الأب «انج» من القائمين على قطاع من قطاعات الزراعة، الزراعة

الخاصة بالخضروات الأجنبية التى تباع للفنادق، كان عمله مهماً ومُربحاً للدير لذا كــان الرجل مميــزاً ومــدللاً، كــان يزرع الفــينوكلى والبــروكلى والكورابى والبروكسل والأنديف والكوف.. لم يكن يهتم بالعبادة فى حد ذاتها ولكنه يذهب للكنيسة لأن جميع الرهبان يذهبون، ويصوم لأن من بالدير صائمون، لم تكن له حياة رهبانية قوية ولكن محاكاة للرهبان، كان يجبر نفسه أحياناً على تقليدهم وأحياناً لا يجبرها، فإذا رغب فى تقليدهم قلدهم، وإن لم يرغب هز كتفيه باستخفاف وكأن الرهبان يلعبون لعبة سخيفة هو فى غنى عنها.

كان يقول لى: أنا أغلق على نفسى بابى وأردد أغانى أم كلثوم، وفى إحدى المرات كان يغنى لها أثناء نزوله الدرج وإذا بأب اعترافه أمامه وجهاً لوجه.

❖❖❖

كان الأب الروحى الأول على الكلية فى زمانه.. وكانت قدراته تمكنه من أكثر من ذلك ، الذكــاء الخــارق، الذاكــرة الحــديدية، القــدرة على الرسم.. عــزف الموسيقى، لكنه عندما تقدم ليكون معيداً بالكلية رُفض، أثر هذا الرفض فى نفسه فقد فقد مكانة علمية وأدبية كبيرة، لكنه حاول تخفيفها بطرق أخرى ونجح فى ذلك.. فقد كان طموحه لايقف عند حد، فهو يحاول أن يطير إلى أعلى السماوات.

وبعد أن صار فى مكانته الرهبانية ظل يحن للمعيدين والدراسات العليا، ولا يكف عن ذلك، فلا يكف عن نصب الفخاخ حول المعيدين والحاصلين على الماچيسترات والدبلومات، فإن سمع أن أحدهم فى زيارة للدير يترك أعماله ومشغولياته ومسئولياته وينزل بجلالة قدره لمقابلته على الرغم من رفضه مقابلة أكبر الزوار حتى الأساقفة منهم.

وما أن يجلس مع أحدهم ويدير الحديث حتى يدمر ذهن المسكين الذى يقع فى حبائله فهو بارع فى تصوير الدير والحياة الرهبانية، وعلى الرغم من أن هذه الصورة وهم وخيال، خيال مريض لأب روحى مريض لم يستطع أن يحققها على أرض الواقع، ورغم أن الواقع مرير لكنه كان يزينه ويجمله للآخرين.. كانت له قدرة على خلب اللب والسحر بالكلام فيقع سامعه فريسة سهلة له منفذاً رغبته

التى لم يعلنها صراحة، بل احتال بأسلوبه الناعم فيحمل سامعه على مايريد دون أن يصرح، فيترك المسكين العالم ويعود للدير طلباً للرهبنة.

وكان أبونا «انج» الأول على كلية الزراعة بجامعة القاهرة، وقد أعد رسالة الماچستير وكان ميعاد مناقشتها يوم سبت فقال فى نفسه: أذهب لآخذ بركة الدير يوم الخميس قبل مناقشة الرسالة مباشرة. وحضر للدير برسالته لتأخذ هى الأخرى بركة الدير.. وكان الأب الروحى فى الانتظار يصطاد من يترددوا على الدير ويظهروا ولو ميلاً بسيطاً. لم تكن لـ«انج» ميول رهبانية كما أن زيارته للدير هى الأولى وربما تكون الأخيرة.. وخاف الذئب من ضياع الفريسة.. فماذا يفعل؟!

قال أبونا «انج» ولنفرض أن اسمه كان «رأفت» قبل الرهبنة: بينما كنت أغط فى النوم فالسفر للدير شاق، كما أن الهدوء فيه يجعل النوم هادئاً عميقاً، إذ بأحد الأخوة يوقظنى، فقلت: ماذا؟ فقال: أبونا رئيس الدياكونية أرسلنى إليك وهو منتظرك بالكنيسة، كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً، فقلت فى نفسى: من يكون رئيس الدياكونية هذا؟ إننى لا أعرف أحداً هنا ولا يعرفنى أحد.. ربما تكون الصلاة إجبارية هنا ويريدنى حضور التسبحة، ولكنى لا أرغب فى حضورها وغلبنى النعاس فنمت، وإذا بالأخ يعود مرة ثانية ويوقظنى ووقف على سريرى حتى ارتديت ملابسى ونزلت للكنيسة.

أخذنى رجل أبيض اللحية من يدى واقترب من مقصورة بها أجساد قديسين.. ووقف أمام الأجساد الموضوعة داخل أنابيب مغطاة بقطيفة حمراء داكنة وصار يتمتم ويتكلم باللغة القبطية وأنا لا افهم شيئاً ولا أعرف اللغة القبطية.. إلى أن قال بالعربية: عبدك الأخ «رأفت».. ففهمت أنى أنا المقصود بهذه الصلوات.. ولكن لماذا أنا دون الشباب الزائرين للدير؟ تناول الرجل جلباباً بنى اللون كان موضوعاً على الأجساد وقال احن رأسك، فأحنيت رأسى فوضع الصليب فوق رأسى وعاد للقبطية والعربية.. وأخيراً ألبسنى الجلباب.

انتابنى القلق والتوتر وازدادت ضربات قلبى وصرت أتنفس بصعوبة حتى خُيل لى أننى سأسقط فاقد الوعى أو كأنى فى حلم مبهم غامض، أخذ الرجل ذو

اللحية البيضاء حزاماً عريضاً جداً لم أر له مثيلاً فى العالم.. عليه أشكال وصلبان وربطه حول نصفى فوق الجلباب ثم التقط طاقية بنية وأدخلها فى رأسى وقال لى: مبروك.. وقبلنى فى كتفى اليمين ثم اليسار، أما أنا فكاد يقتلنى الذهول.. إذ ماذا يحدث لى هنا؟ وما المقصود بحشرى فى هذه الملابس الغريبة.. على أصوات الرهبان التى توحدت بالتسبيح على إيقاعات منتظمة؟

وأفقت لنفسى ونظرت حولى لعلى أستطيع أن أفهم مايحدث.. ولكنى لم أستطع.. رأيت رهباناً يترنمون عن ظهر قلب وعيونهم مغمضة ووجوههم إلى أعلى، ورهباناً يقرأون من كتاب التسبحة. ومنهم من أطرقوا بوجوههم إلى الأرض وراحوا فى فكر عميق.. ربما يفكرون فى العودة للعالم مرة أخرى!! كل منهم مندمج تماماً حتى ذلك الراهب النائم قرفصاء فى آخر الكنيسة مندمج أيضاً لدرجة أن صوت شخيره تسمعه على بعد أمتار.

كان علىّ أن أنتظر حتى نهاية التسبحة.. وانتهت وإذا بالرهبان يقعون على عنقى يقبلوننى واحداً واحداً، ثم قبلنى الأخوة كذلك.. كان معظمهم يبارك لى.. وبعضهم يقول: شد حيلك.. كنت أشعر من نبرات أصواتهم أنى داخل على محنة كبيرة الله وحده يعلم مداها.. ومنهم من قال لى: ربنا يقويك وتكاد تفر الدموع من عيونهم علىّ، ويشدون على يدى وعندما يحتضوننى أحس بحرارة عواطفهم وعطفهم ومنهم من أحسست فى عينيه بالحسرة علىّ وعلى شبابى.. وكأن لسان حاله يقول: «خسارة أن تدفن نفسك هنا».. ولم أكن أفهم شيئاً.

كنت أظن أن المشكلة تنتهى عندما أدرك ماذا يجرى؟ لكنى عندما أدركت.. بدأت المشكلة الحقيقية، ألبسونى الزى لأكون أخاً تحت الاختبار (طالب رهبنة)، مع أنى لم أطلبها ولم أفكر فيها.. فكيف يحدث لى ماحدث؟ وبينما الأخوة يلتفون حولى ومنهم من يحتضننى مرة ثانية، ومن يضع يده على كتفى، وثالث يحيطنى بذراعه، فإذا بى شارد الذهن لا أكاد أسمع دعواتهم، بالكاد كنت أرد على مجاملاتهم، وأخذونى فى طريق غير طريق المضيفة (مكان الزائرين)، وصعدوا بى درجاً عالياً وأدخلونى حجرة بها سرير وطاولة وكرسى، وأحضر لى أحدهم إفطاراً، وقالوا لى افطر واشبع نوماً.. وسوف نأتيك بالغداء لنأكل سوياً، وسنحضر لك كل ما ينقصك فى القلاية.

تركونى وحدى وإذا بالقلاية تدور حولى وكأنها انطلقت فى الفضاء وانعدمت فيها الجاذبية، فإذا أردت ن أستند على أحد جدرانها يبتعد هذا الجدار عنى جداً، ويقترب منى الجدار المقابل له، وما أكاد ألمسه حتى يبتعد هو الآخر، وينقلب السقف قاعاً والقاع سقفاً، لكنى يجب أن أعود اليوم إلى منزلى لأراجع بعض النقاط فى رسالتى قبل أن أنام فغداً ستناقش رسالتى فى حضرة من أساتذة الكلية وطلبتها الذين طالما رأونى الأول والمتفوق.. ثم أين الرسالة؟ إنها هناك بجوار السرير.. ياليتهم يحافظون عليها، ليت أحدهم يأتينى لأطمئن على وجودها، إنها ثمرة تعبى وتعب العمر كله.. سهر الليالى.. مراجع أشكال وألوان، مكتبات.. إلخ.

ودعوت من كل قلبى يارب ارسل لى راهباً يأخذنى إلى هناك، ولكن كيف سأعود للبيت وأنا فى هذا الزى، فى هذه القيود؟ إننى أكاد أن أموت، لم أكن أتوقع عرقلة مناقشة الرسالة، أمر لم يكن فى الحسبان نهائياً، إنها مصيبة.. مصيبة كبيرة.. بل فخ وقعت فيه، أريد الخروج.. ليتنى أستطيع.. ليتنى أصرخ بأعلى صوتى.. أخرجونى من هنا!! أريد رسالتى أريد أمى وأخوتى وأصدقائى.. أريد زملائى وزميلاتى فى الكلية، لم أقترب من الطعام ولا استطعت أن أهدأ.

شمل الدير سكون رهيب، لم أسمع صوت إنسان أو حتى صوت ناتج عن حركة تفريغ أو حمل، نظرت من نافذة القلاية الوحيدة فرأيت أحواض الزرع واجمة، لم أسمع حتى نباح كلب أو مواء قطة، وكأن الهواء توقف فلم تعد النباتات تهتز، سرت آلاف الكيلومترات داخل القلاية أسأل نفسى:

> «ألم يكن باستطاعتى ان اصرح للرهبان والأخوة انى اتيت للزيارة فقط، وآخذ بركة المكان وليس لى علاقة بهذا الزى؟ ولكن كيف كنت افاجئهم واقلب فرحهم حزناً؟ وكيف كانوا سينظرون إلىّ؟ وماذا سيقولون عنى؟ متخاذل ضعيف يحب الشهوات.. وفوق كل ذلك كان لسانى معقوداً.. ولم تكن لدىّ الشجاعة حتى لمجرد النطق».

ووجدت نفسى لأول مرة أتكلم بصوت تسمعه أذناى، وليس معى أحد وأحياناً أشير بيدى وأخرى أتصور نفسى محامياً أدافع عن نفسى مُرتباً أقوالى

أولاً.. ثانياً.. ثالثاً، وصممت على العودة للمنزل.. كانت الدقائق تمر وكأنها دهوراً كاملة.

فى الثانية عشرة حضر اثنان من الأخوة ليأخذانى إلى المائدة، كانت البشاشة تطفى على وجهيهما فقلت لأحدهما: أريد مقابلة أبينا «كى» رئيس الدياكونية. قال: سوف أبلغه برغبتك، دخلنا المائدة.. كانت مهيبة، كل شىء فيها منظم ومرتب، لا أحد يكلم أحداً. كل فرد له مكان يجلس فيه، ووجدت أمام الكرسى الذى أجلسونى فيه لافتة من خشب مكتوب عليها «الأخ رأفت»، أحسست بالجوع فى تلك اللحظة وبدأت فى الأكل، تلصصت بعينىّ على هذا الوجوم المحيط بى، كان كل راهب منهمكاً فى الطعام ومطأطىء الرأس، مما أعطانى حرية أكبر فى النظر إليهم، وكان هناك راهب على منصة ويقرأ ما عرفته فيما بعد بـ«بستان الرهبان»، وبالطبع لم أع ولا كلمة واحدة.

وفى طريق عودتنا للقلاية أكدت على ذاك الأخ الذى لا أعرفه بضرورة إحضار أبينا «كى» لأنى أحتاج إليه فى أمر مهم، وانتظرت.. مرت ساعة وساعتين وثلاث، وكنت أظن أنى سأقابله فى المائدة، أليس جميع الرهبان يأكلون فيها ولهم نظام واحد مطبق على الجميع ولكنه لم يحضر للمائدة، وعلمت فيما بعد أن المائدة لفقراء الرهبان، أما هو ومن على شاكلته فيأكلون فى قلاليهم المحمر والمشمر، ألم يبلغه الأخ برغبتى فى مقابلته العاجلة، أم أن الأخ نسى أم تكاسل الأب «كى»، وهل أظل فى هذا الحبس؟ وأخيراً جاء.. بصوته الجهورى بارك لى مرة ثانية ثم بدأ بسيل من المديح والإطراء والجمل المنمقة.. سيل لم يتوقف وكأنه يعرف مايدور فى داخلى قال لى:

«يجب ان تكون لديك ثقة فى الله.. أليس عندك إيمان.. لقد اختارك الله»

فقلت فى نفسى: أيختارنى دون أن أختاره؟ إن كل أملى أن أحصل على الدكتوراه ثم أتزوج وأنجب.. ولكن كيف اختارنى؟ فرد على سؤالى الذى لم أتفوه به، وقال: لقد سألت الأب الروحى عنك فقال إنه جلس معك.. ووجدك تصلح لطريق الرهبنة، وكان الأب الروحى يقصد الأخ عادل المتقدم للرهبنة ولا يقصدك أنت.. لكن هذه إرادة الله.. وعلينا أن نطيع فالطاعة لله أفضل من تقديم

الذبائح. كلام وآيات وخطب.. ثم تركنى فى ذهولى ولكن لدى بعض من الجلد.. نعم هذا الجلد يأتينى حينما تكون المصائب كبيرة جداً لاتطاق، وكم من أمور صغيرة تهزنى من أعماقى وتقلب كيانى وكم من أمور كبيرة أحسست فيها بالجلد والقدرة على الاحتمال.

وحينما كان يحدثنى عن زوال هذا العالم وعدم نفع الزواج والعلم، فكلها أشياء باطلة وزائلة وليس باقياً سوى العمل الروحى والصلاة والصوم والعبادة، كنت غير مقتنع لأن هذه الأشياء أرغبها من عقلى وقلبى ولايمكن ان أبدلها.. اللهم إلا إذا أخذت عقل هذا الراهب مكان عقلى.

على أية حال ضاعت الفرصة للعودة للمنزل ومناقشة الرسالة، على أنى فيما بعد اكتشفت من سلوك الدير أن هناك غشاً ولابد أنهم غشونى أنا أيضاً، فكيف سأل رئيس الدياكونية عنى وهو لايعرف عنى شيئاً، لم أنطق بكلمة تصرح أو تلمح برغبتى فى الرهبنة.. كيف يسأل عنى وهو لايعرف حتى اسمى، كل مايعرفونه أننى سأناقش رسالة ماجستير.

◆◆◆

ولو كان الأب الروحى صادقاً.. وعلم بهذه اللخبطة لكان عليه أن يكلف سيارة تحملنى إلى منزلى لأستطيع مناقشة رسالتى، ثم لماذا طلب منى رئيس الدياكونية أن لايعلم أحد بالأمر.. لماذا يخاف أن يعلم الرهبان بما حدث لأنهم يعلمون كذبه وكذب الأب الروحى.. وسيفتضح أمر احتيالهم علىّ لاصطيادى.

لقد أصابنى الذهول!!

فإذا كان الملل يأخذ بى حينما أصلى منفرداً لمدة عشر دقائق، ولا يمكن أن أصلى عشرين دقيقة فكيف أقضى ساعات فى الصلاة، حينما أكون بالقداس يوم الجمعة أو الأحد أقف تارة على رجلى اليمنى وتارة على اليسرى، وأجلس تارة واقف أخرى، خاصة إذا كانت الصلوات باللغة القبطية وأتذرع بأى حيلة لكى أخرج إلى فناء الكنيسة أنادى الأطفال أو أسأل أحدهم عن أى شىء ولا أكون بحاجة لإجابته، فكيف سأعيش حياة كلها صلاة؟! وأمى المسكينة وأختى لاتعرفان مكانى.. تعرفان أنى سأذهب للدير لأخذ البركة ولكن أى دير؟! فالأديرة كثيرة..

قال إنها إرادة الله.. وهل إرادة الله تسعد عندما تحول بينى وبين مناقشة الرسالة وتحضير الدكتوراة؟ هل إرادة الله تقف فى وجهى فلا أحقق احلامى وأصنع مستقبلى؟! هل إرادة الله أن تكسر طموحاتى؟!..

وحضرت المسكينة أمى بعد أسبوع باكية نائحة.. وأخذت تسأل: لماذا لم تحضر؟ لماذا لم تناقش رسالتك؟ لماذا تركتنا دون خبر؟ هل جننت؟.. لا.. هل التحقت بالرهبنة؟ لا.. إذن ماهذا الزى الذى تلبسه؟ إنه لزوم العمل هنا.. قالت لى: هيا معنا.. قلت: لا أستطيع.. اذهبا وسوف أعود إليكما بعد أسبوع.. ومر أسبوع وأسبوعان واربعة أشهر.. وجاءت والدتى وأختى.. وكررتا نفس الأسئلة، إذن لماذا هذا الزى؟ وكان أسود هذه المرة، فقد تمت رهبنتى.. فقلت لهم لزوم العمل.. قالت أمى: هيا معنا. قلت: لا أستطيع.. اذهبا وسوف أرجع إليكما.. ومرت سبع سنوات اقتنعت فيها أنها حياة لا تناسبنى إطلاقاً، وأن ما أقوم به هو تمثيل فى تمثيل، كل نجاحى كان فى عملى بالزراعة وحسب، وجلب كميات هائلة من العملة للدير.

أما أنا ففارغ من الداخل.. لا هدف ولا طريق ولا رغبة منى حتى فى الحياة نفسها، فتركت الدير وعدت لمنزلى ولكن كل شىء تغير، فالذين كانوا يبكون لفراقى قابلونى باستياء شديد وكأنى قمت بفعلة حمقاء خرقاء. نعم كانوا يفتخرون بى ويعدوننى بطلاً شهيداً، والآن يقابلوننى وكأنى خائن فر من ساحة القتال، أعود مخزولاً مهزوماً فاراً معطياً ظهرى للعدو، حتى أصدقائى الذين كانوا يعدون بالعشرات لم يحضر منهم أحد لمقابلتى، اللهم سوى اثنين، أما ابنة خالتى التى كانت عطوفة جداً تحولت إلى عنيفة قاسية، قالت: هل تركت الرهبنة كى تتزوج؟ أتترك القداسة من أجل شهوة؟!

وسألت نفسى: كيف سأغير ملابسى وأقوم بحلق لحيتى وشاربى؟ وكيف أبحث عن عمل وأنا مرفوض من المجتمع؟ وكيف سأواجه نظرات المسيحيين التى تعنفنى وتثقب أعماقى، وأنا لديهم كالمرتد، وربما ينظر إلىّ إخوتى المسلمون نفس النظرة، وبعد حبس فى غرفتى الخاصة بالمنزل وتفكير طويل، لم أجد بداً من

العودة للدير.. أكمل فيه حياة اليأس هذه التى بدأت يوم رأيت الرهبان وحضرت للدير لآخذ البركة يوم أن ألبسونى رغماً عنى الجلباب البُنى».



عاد أبونا «انج» للدير وعمل ست سنوات أخرى، وكنت أعمل معه نصف يوم ثم تفرغت للعمل معه اليوم كله، كان الرجل يحبنى حباً عظيماً، وكنت أحبه أكثر من نفسى، أحياناً كان يقول لى: لاتذهب للغداء فى الدير بالمائدة.. بل ابق فى المزرعة.. وتكون المفاجأة إذ أجد بعض الرهبان قادمين أيضاً وقد أعد لنا الغداء «محشى كرنب»، الذى كان ممنوعاً فى الدير، فقد كان المحشى رفاهية، إذ كيف يترفه الرهبان، لم تكن لدى الرغبة كاملة فى تناول المحشى، إذ كيف أميز نفسى عن رهبان الدير ولكنى لا أستطيع أن أعكر صفو هذا الطفل البرىء الذى كان يفرح بعمل المحشى لنا ويقفز كالأطفال ويظل سعيداً عدة أيام بهذا العمل.



قال لى الأب «انج» يوماً وكنا فى الفترة الصباحية: اذهب فى الظهيرة إلى مزرعة العمال وأحضر لنا أكبر عدد ممكن كى نجمع البروكسل كله دفعة واحدة ونقلع جذوره ونزرع غيره مكانه، وبدأنا فى الجمع ولم يحضر وانتظرت أكثر ولم يحضر فأوقفت سيارة على الطريق وكانت لرأس كبيرة فى الدير فقال لى بتجهم: ماذا تريد؟ قلت: الذهاب للدير لإحضار أبينا «انج» للعمل، وما أن ذكرت اسمه حتى احمر وجه صاحب السيارة واغرورقت عيناه بالدموع وأشاح بوجهه عنى قائلاً: «الأب انج مشى».. وزاغ بسيارته، فلم أجده لأفهم ماذا قال وماذا يقصد؟

ترك الرجل فى أعماقى إحساساً عميقاً بالخوف والرهبة.. انتهى اليوم وعدت للدير ووجدت إعلاناً مكتوباً فيه:

«عظة روحية للأب الروحى فى تمام الساعة السابعة اليوم»

كنت قد تعودت على غياب أبونا «انج»، فقد كان يتغيب كثيراً عن العمل فى الفترة الأخيرة، ولم أره فى العظة أبداً فلم يكن يحضرها رغم أن الحضور شبه إجبارى.. وتحدث الأب الروحى ساعتين كاملتين عن المحبة والإخاء والرجاء..

إلى آخر ماكان يردده من الأكاذيب التى يدعيها، وفجأة تغيرت نبرة صوته وكاد أن يبكى وقال: لقد فارقنا اليوم أخ عزيز علينا .. إنه لشىء مؤسف ومحزن للغاية لقد ترك الدير ورحل.

كان رحيل أى راهب من الدير صدمة لى، كان يصاحبنى بعدها غم شديد وألم لمدة لاتقل عن شهر، إن أكبر ماكان يؤثر فىّ فى الدير هو رحيل أحد الرهبان، فقد كنت أحس بأن قطعة منى فارقتنى.. وأظل أفكر فيه ليل نهار.

ووقف الأب الروحى يصلى فى نهاية العظة، وأنا لا أطيق صبراً ولا أريد الصلاة حتى ولو كان الله سيسمعها، كل ما أريده أن أعرف من الذى رحل؟ وصُعقت عندما عرفت أن الأب «انج» هو الذى ترك الدير، وكم كان ذلك قاسياً على نفسى، ولك أن تتصور كيف قضيت تلك الليلة، وفى الصباح ذهبت للعمل ورأيته فى كل شبر فى الأرض التى زرعها .. وبكيت من أعماقى وأنا الذى لم أبك فى حياتى أبداً، لم أذق الطعام وكتبت للأب الروحى الذى حضر بنفسه وواسانى وقال: لا تبك واذهب تناول الطعام وكاد أن يبكى هو أيضاً.

كان الأب رئيس الدياكونية غائباً أثناء هذه الأحداث، وحضر ورآنى فى حزنى وغمى الشديد وقال: أنت حزين لأجل أبينا «انج»؟ فقلت: نعم، فقال لى: «ماتعرفش أبونا الروحى طرده ليه؟»، فشهقت وفتحت عيناى وفمى وقلت: طرده؟! أنا لا أعلم أنه طرده، وكانت مفاجأة مرعبة لى، الأب الروحى يطرده بعد ثلاثة عشرة سنة رهبنة، وأنا أعلم أن الأب الروحى هو الذى اختار له هذا الطريق، فكيف يطرده الآن؟.. أدخله الرهبنة احتيالاً وبعد أن أضاع مستقبله يخرجه منها طرداً.. ياويلى.. ياويلى.. وياويل الرهبنة والرهبان.. وكيف قال الأب الروحى فى العظة أنه رحل وأنه ترك الدير بإرادته ورغبته، وكيف بُح صوته وكاد أن يبكى ويكى فعلاً فى الصلاة، إن مشى القاتل فى جنازة القتيل أسهل وأيسر بكثير من أن يبكى القاتل على القتيل الذى قتله بيديه.

أرأيتم أعجب من هذا؟!.. أرأيتم أتقن من هذا تمثيلاً؟!.. لعن الله الذى أدخل أبانا «انج» الرهبنة ولعنته ثانية على من أخرجه منها .. لكنى سمعت بعد ذلك أنه التحق بعمل ما وتزوج وأنجب.

● من بين السطور

فى شهوره الأخيرة فى الدير.. كثرت زيارات الأب الروحى لأبينا «انج» بالمزرعة وكانا يختليان ويتحدثان كثيراً على الرغم من أن كثيراً من الرهبان كانوا يتمنون أن يتحدثوا مع الأب الروحى ولو لخمس دقائق.. ويبدو أن خلافاً ما نشب بين أبينا «انج» والأب الروحى كان سبباً فى طرد الأب «انج» من الدير.. أو أن الأب الروحى اقتنع بعد ١٣ سنة بعدم جدوى بقاؤه فى الدير!!

حكم قراقوش

كانوا ثلاثة أخوة ترددوا على الدير منذ نعومة أظافرهم، وأحبهم الرهبان وتعهدوهم بالتربية والرعاية، وعندما اشتدت سواعدهم علمهم الرهبان قيادة الجرارات والبلدوزرات فقابلوا هذا الجميل بمزيد من الحب للدير والرهبان وقاموا بتنفيذ الأعمال المطلوبة منهم بدون أى مقابل مادى.

وكان الأخ الأوسط حاد الطباع قليلاً، وذات يوم تلقى أمراً تعسفياً بترك العمل الذى كان على وشك الانتهاء منه والبدء فى عمل آخر بمكان آخر، ونظراً إلى أن تغيير مكان عمل البلدوزر من الأمور الشاقة وخاصة أنه بطىء الحركة.. أصر هذا الأخ على إكمال عمله، فقوبل هذا الموقف بعقوبة تعسفية تمثلت فى طرده من الدير، وهى أقصى عقوبة توقع على العامل، فبالإضافة إلى «قطع عيشه» فالفضيحة تنتظره فى بلده.. كما أنه سيعامل كالمطرود، فليس له حق العودة للعمل فى الدير ولا حتى زيارته، وقد اتخذ القرار قداسة الأب الموقر الأب الروحى، إذ لايستطيع أى راهب فى الدير اتخاذ قرار الطرد.

وبعد عامين من عمل هذا الأخ فى إحدى الشركات الخاصة فى الصحراء بجوار الدير (شركة سامى سعد) اشتاق للقاء أخويه، وخاصة أن ميعاد إجازته لا يتفق مع ميعاد إجازتهما من الدير، فقرر الحضور للدير ورؤية أخويه، وفى مساء أحد الأيام حضر إلى الدير وأدخله الأب البواب وجلس مع أخويه وسمح له الأب المشرف بالبيات تلك الليلة مع أخويه فى الدير، وكادت هذه الحادثة أن تمر بسلام، وخاصة أن بوابة الدير ومساكن العمال تبعد ثلاثة كيلومترات عن مساكن الرهبان، إلا أن «أولاد الحلال» ـ الواشين» من الرهبان أبلغوا الأب الموقر بهذه الجريمة العظيمة، ووقعت الطامة الكبرى، فأثناء عودتى من المزرعة ذات يوم قرأت إعلاناً كُتب بالخط الأسود الكبير وعُلق فى إطار الإعلانات بحجرة تناول الطعام:

«نظراً للتسيب الحادث فى الدير وعدم الالتزام بقوانين الضبط والربط وهو مايعبر عن مدى سوء الحالة الروحية التى وصل إليها الرهبان فقد تقرر الآتى:

١ ـ يعاقب الأب البواب (ع) بالحرمان شهراً من الكنيسة والصيام لمدة شهر.

٢ ـ يعاقب الأب المشرف على مساكن العمال (ص) بالحرمان شهراً من الكنيسة والصيام لمدة شهر.

٣ ـ يصوم الدير كله (جميع الرهبان والأخوة) ثلاثة أيام على الخبز والملح(*).

ولكن لِمَ كل هذا؟ أيستحق هذا الخطأ كل هذه العقوبات؟ إننا لو أخطأنا فى حق الله نفسه لما أوقع علينا الأب الروحى مثل هذه العقوبات. وامتلأت نفسى بإحساسين أحب أن أسجلهما هنا:

● الإحساس الأول: ويتمثل فى تضخم ذات الأب الروحى المقدس، فالله يسامح ويغفر، فهو رؤوف رحيم، أما الإنسان المتكبر فيرفع نفسه فوق الله فلا يسامح ولا يصفح، ألم يسأل بطرس الرسول السيد المسيح قائلاً: إلى كم مرة أغفر؟ فقال له المسيح: إلى سبع فى سبعين مرة فى اليوم، أى ٤٩٠ مرة يوميا، وهاقد مضى عامان ولم يصفح الأب للعامل المرة الوحيدة التى كسر فيها قراراته التعسفية.

«ألم يقل المسيح: فإن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى وإن لم تغفروا لا يغفر لكم»؟ ـ متى 14:6 ,15 ـ «ألم يقل الإنجيل: من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر»؟

● الإحساس الثانى: ويتمثل فى الازدواجية الفكرية التى يعانى منها الأب الروحى، ففى الوقت الذى يفسر فيه الإنجيل فى كتب

(*) تفسير هذا البند فى قانون العقوبات يعنى أن يصوم الرهبان عن جميع أنواع الطعام عدا الملح والخبز فقط، وذلك بعد الساعة الثالثة ظهراً ويسمح بشرب الماء فقط.

ومجلدات ومجلات لايعمل هو بآية واحدة منه، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، فهو يريد ألا يعمل به الرهبان، فالراهب البواب والمشرف تصرفا تصرفاً مسيحيا وإنجيلياً فضلاً عن كونه تصرفاً إنسانياً حين سمحا للأخ بمقابلة شقيقيه، فهل يريد الأب الروحى تجريد الراهبين من التقيد بتعاليم الإنجيل والتخلى عن إنسانيتهما ليطبقا قوانينه وأوامره، وإن اعترضا فمصيرهما الطرد من الدير؟ وإن لم يكن الدير المكان الذى يطبق فيه كلام الإنجيل والسيد المسيح، فترى أين يمكن تطبيقه؟ فى الخمارات وبيوت الخطيئة؟!

وينطبق على الأب الروحى مقولة المسيح: «سيقوم بعدى أنبياء كذبة كثيرون ومسحاء كذبة كثيرون، ذئاب فى ثوب حملان، وإن أمكن يضلون حتى المختارين».. وهل هناك مختارون أكثر من الرهبان؟

بعد هذه الحادثة أراد الأب ضبط البوابة ففكر فى شخص تتوافر فيه الأمانة والدقة والحزم والانضباط بالإضافة إلى الولاء للدير وقبل كل هذه الصفات أن يكون هذا الشخص «غبياً»، أى يطيع الأوامر طاعة عمياء لا يناقش ولا يجادل.. لذلك أرسل إلىّ الأب الروحى أمراً مكتوباً: «تم تعيينك على البوابة». وأوصانى بالتشدد وعدم التهاون فى أى شىء.

4

إهانة المسيح أمام بوابة الدير

يختلف العمل بالبوابة عن بقية أعمال الدير، فالراهب البواب عنوان الدير، بل عنوان الرهبنة كلها، فالحكمة مطلوبة فى كل تصرفاته، فهو واجهة الدير أمام العالم الخارجى، فعلى البوابة يقابل جميع أصناف البشر، من يطلب ومن يعطى، من يريد دخول الدير لالتماس بركة القديسين مُقَبِّلاً لأقدام الرهبان، ومن يخرج من الدير فاقداً الإيمان فى القديسين وبركتهم ولاعناً للرهبان وآبائهم، ويقابل أيضاً من يدخل الدير تائباً يذرف الدموع على ماضيه الملطخ بالخطيئة نادماً على ما اقترفه من الذنوب ويعيش فى الدير لفترة فتجف دموعه ويستريح من وخز ضميره فيرتد على أعقابه وتسقط من عينيه كل الهيبة التى كان يكنها للروح والروحانيات فيعتاد على الصلاة دون أن يصلى ثم يخرج من الدير أشر وأقسى مما كان عليه عند دخوله الدير.

وعلى البوابة طردت الفقير المحتاج وأدخلت الفتى الموسر، وفتحت الباب لصاحب الاسم والشهرة وعكست آيات الإنجيل، فالله اختار فقراء العالم ومنبوذيه، أما الدير فيختار شرفاء العالم ووجهاءه، وبينما رفضت إدخال رحلة من الصعيد مثلاً ربما اقترض بعض من فيها أجر الرحلة وحضروا والشهوة لأرض العُبَّاد تمزق قلوبهم، فمنهم المريض وطالب الشفاء والمحتاج ومن يريد حلاً لمشاكله الدنيوية المتراكمة على راسه، سمحت بإدخال عشرات من الأفواج الأجنبية من كل صنف بغرض الفرجة والتنزه على أماكن سياحية دينية!!

أحسست لوقت طويل وأنا أعمل على البوابة أننى «حمار» بمعنى الكلمة أطيع الأوامر فقط وأخلى ساحتى من المسئولية، أما صاحب القرار فهو المسئول

وأنا أداة لعقله فقط.. هو يفكر وأنا أنفذ «كالبهيم» المعصوب العينين فى الساقية يعتقد أنه قطع أميالاً وسافر بلاداً ويحس أنه على بُعد أقدام من المدينة بمراعيها الخصبة، فحث نفسه لكى يصل إليها وبينما يحس برطوبة حشائش المدينة تحت حوافره.. إذ بالعصابة تسقط من على عينيه فيرى صاحبه المعتوه وهو يهوى بالسياط على رأسه فيعود إلى بؤسه وأحزانه ويكتشف أنه لم يتقدم ولا خطوة واحدة منذ بداية حركته، أما العقل ففى إجازة.. فلماذا أفكر؟ ولو قدر للحمار أن يفكر لأرهقه التفكير أكثر مما يحمله ولما استطاع أن يحمل شيئاً..

ولم أستدع عقلى ولكن أعصابى استدعته، فدموع التلميذ الذى لايملك اجرة العودة بعد أن قطع إلينا مسافات طويلة وكله أمل ورجاء فى وجود فرصة عمل كما سبق له فى الأعوام الماضية، وتوسلات الزائرين المساكين وخيبة أملهم فى الدخول إلى الدير، والكذب على كل هؤلاء كما أملى علىّ، فالزيارة ممنوعة لأنه يوجد صيام والرهبان فى اعتكاف للصوم والصلاة، وقد أوصدوا ابوابهم واغلقوا قلوبهم أمام العالم كله ليبتلهوا إلى الله ليحل الحب والسلام. واقول الصدق إننا لم نعتكف إلا لنعمل ونزيد نيران العمل اشتعالاً وما المشاجرات التى حدثت بيننا والتى وصلت أحياناً إلى السب والضرب بالأيدى و«الشباشب» سوى ثمرة اعتكافنا..

نعم عندما أرهقت أعصابى استدعيت عقلى، فما أفعله يتناقض بصورة صارخة مع الإنجيل، وازدادت همومى الداخلية وتخطت بكثير الهموم الخارجية، فحاولت أن أكون حماراً مرة أخرى ولكن دوى جدوى وحينئذ حسدت جميع حمير الأرض.

كانت النجوم تتلألأ منثورة فى قلب الصفحة الداكنة وسكون الليل يكبلنا بالصمت وشقاء النهار يثقل رأسى بالنوم والشعلات الصفراء الصادرة من مصابيح الكيروسين تتراقص أمامى، أما الضوء المنبعث من الكلوب الأسود الكحولى فلا قدرة لعينىّ أن تبصر فى وجوده شيئاً، ماذا لو تركنى الآباء للنوم وقاموا هم بفتح البوابة وإغلاقها فى الثانية بعد منتصف الليل، ولكنهم فى انتظار تجار الدجاج لعلهم يأتون سريعاً ويشترون مايشترون، وياحبذا لو عادوا مباشرة

وأجِّلوا الشراء ليوم آخر، وأستطيع النوم لساعتين أو ثلاث قبل بزوغ الفجر والذى يحمل لى كماً هائلاً من الشقاء والعناء، ولكن هاهو ضوء سياراتهم فى طريق الدير المنحدر تجاه البوابة. وضج الرهبان إذ رأوا الضوء وأسرعوا بفتح البوابة الحديدية الضخمة ودخلت السيارات ورحب الرهبان بالتجار وركزوا اهتمامهم على المعلمة (توحة)، فقد كانت جميلة حقاً.. ذات عينين جميلتين جداً.. رسمتها يد رسام بارع وصوتها جميل عذب، ووجنتاها شديدتا الاحمرار، كل هذا بالإضافة إلى شفتين صغيرتين مستقيمتين بدون تضخم أو غلظة، ومما يزيد من جمالها احترامها وعدم تبذلها فى الكلام، وكان جسدها ينفجر بالأنوثة الطاغية تنطلق من حركاتها وسكناتها وسحر الأنوثة الطاغى فى وجهها، وكما كنت أهرب من ضوء الكلوب المبهر لكى لايوقظنى ويبدد نعاسى كنت أهرب منها وأتحاشى النظر إليها، اللهم إلا لحظات أسرق فيها بعض النظرات المتلصصة، على أن الراهب لايحتاج إلى كل هذا الجمال لإيقاظ رغبة كامنة بداخله.. فهذه الرغبة متيقظة دائماً والراهب فى حرب ضروس معها، وكان دورى ينتهى عند تقديم وجبات الضيافة لهم بعد هذا السفر ويمكننى بعد ذلك أن أخلد إلى الراحة، وبعد ذلك ينشغل الرهبان مع التجار فى الحساب، وكلما استيقظت من نعاسى المتقطع كنت أرى أحد الرهبان منفرداً مع (توحة) فى إحدى الزوايا وإذا تركها هذا استلمها آخر.. وهكذا. وسمعت أحد الرهبان يتفق معها على اصطحابها فى جولة داخل مزرعة الدير ليهديها كمية من بطيخ الدير، والعجيب أن هذا الراهب عرف أننى قد سمعت حديثهما ومع ذلك لم يهتم بى وكأننى بلا شخصية يخاف منها أو عليها، أو كأننى ملاك لايفكر إلا فى الخير ولا يتصور وجود الشر على الأرض مطلقاً، وبعد ذلك دخل باقى الرهبان مع التجار والعمال لتحميل دجاج الدير، وذهب معها هذا الراهب فى سيارته داخل مزرعة الدير والتى تبلغ مساحتها (٢٥٠) فداناً.. وكل ذلك أثناء الليل المظلم وغابا أكثر من ساعة.

هذه أول مرة أبوح فيها بأشياء مثل هذه، فلم أكن أسمح لعقلى بالتفكير فى مثل هذه الأمور من قبل، كان إذا حل الليل علينا نجر أقدامنا ونحن نتمنى النوم، أما رهبان الدجاج فيدب فيهم النشاط والحيوية كأنهم يبدأون اليوم، كانوا

يطرحون الرهبانية جانباً ويسيل لعابهم لمجرد رؤية (توحة).. والآن أنا أحترم ضعفهم فهو ضعفى فأنا إنسان تجتاحنى الشهوة مثلهم ولكن ألا يمكن المقاومة والوقوف ولو قليلاً ضد شهوات النفس والجسد، أتكون الرهبنة مجرد قشرة تسقط بمجرد تعرضهم للشهوة المتفجرة من جسدها؟ أهى مهزلة أم تمثيلية؟ أكانوا فى سجن وكانت هى الحرية والحياة بالنسبة إليهم؟

إن شدة قوانين الرهبنة والنسك وضغوط العمل وتجبر الرؤوساء والكبت الشديد لم يجعلهم عرضة للخطأ فقط بل جعلهم ينطلقون قاصدين الخطأ دون أن يقصدوا ودون أن يشعروا.

حين كنت أعمل بالمخبز كان خروجى من أسوار الدير نادراً وخاطفاً وحينما كنت أزور الأب البواب، كانت تنتابنى راحة كبيرة بين أحضان الطبيعة خاصة فى المساء والنجوم تملأ رقعة السماء، وكنت أحسده على عمله فكان يجيبنى بأن العمل على البوابة شاق للدرجة التى سوف تنسيك جمال الطبيعة حولك، وكنت أشعر أنه يبالغ. وبعد ذلك عملت فى الزراعة فى عمق الطبيعة ولكن أبداً لم أشعر بجمالها ولا أمعنت التفكير فى تفاصيلها ونظام تركيبها. فأثناء النهار بالشتاء كانت المياه تغطينى من أسفل صدرى حتى أصابع قدمىَّ بسبب جمع الخضار وغسله ووزنه وتعبئته.. إلخ. كل هذا بجوار المعاناة مع أباء تسويق الخضار المباع إلى الفنادق.

إننى أعتقد أن الإنسان ولد وهو مزود بطاقة نفسية وعصبية تكفيه مدى الحياة إن كانت طبيعية.. وإن عاش الإنسان مترفاً لكانت طاقته كافية لعمر أطول من عمره، وإن عاش شقياً لنفدت قبل أن تأتيه لحظة النهاية، كلٌّ حسب كمية الشقاء والعناء التى يتعرض لها، وفى ديرنا عموماً مهما كانت قوة هذه الطاقة الموروثة فسوف تتبدد بعد ثلاث عشرة سنة على الأكثر، وهناك أعمال قادرة على استهلاك هذه الطاقة بعد خمس أو سبع سنوات، أما البوابة فسنة واحدة كافية للإصابة بالأمراض النفسية.

كانت البوابة تحمل لنا كل يوم مصيبة أو مصيبتين أو أكثر، ومعرفتنا بتنبؤات أشعياء وتفسير أسفار الكتاب المقدس ودراستنا للغة القبطية وكم الصلوات داخل وخارج الكنيسة وقراءة الكتب الروحية وصومٌ هذا مقداره ونسكٌ خنقتنا أوتاره..

كل هذا لا يسعفنا فى مواقفنا وتعاملنا مع الناس على البوابة، وكأن المعرفة النظرية العقلية شئ والخبرة اليومية الحياتية على أرض الواقع شئ آخر.

وبينما أعد الطعام لسائقى سيارات الأسمنت الذين أفرغوا حمولتهم فى الدير تواً إذ بأتوبيس أجانب على الباب، فاتصلت بالمسئول عن المضيفة فقال ارجئ دخولهم لحين البحث عن راهب يرافقهم (كمرشد) وإذ بسيارتين صغيرتين قادمتين لزيارة الدير، وإذ رأوا الأتوبيس فى انتظار الدخول انتظروا هم أيضاً، على أنى أكدت لهم أن قوانين الدير لاتسمح لهم بالزيارة خلال هذه الأيام وكان أحدهم سليط اللسان فتشددت معه فشتمنى وصارت معركة كلامية وأثناء المعركة جاءت سيارة صغيرة أخرى وحضر سائقها المعركة ففهم كل شئ فأدار سياته وعاد من حيث جاء دون أن يتفوه بكلمة وبعد ذلك جاءنى تليفون يطلب منى إرجاع السيارة الثلاجة من على البوابة لكى تأخذ شيكات لصرفها لنتمكن من دفع ثمن الحديد غداً، وما إن وضعت السماعة حتى دق جرس الباب الخارجى فخرجت لأجد ستة عمال قادمين إلى الدير وأخذت الدفتر وبدأت أسجل الاسم والمهنة والعنوان.. إلخ. ولم أكتب عاملاً أو اثنين حتى وصلت سيارتان محملتان بالبرسيم للحظيرة وسائقها فى غاية العجلة، فتركت التسجيل لأقوم بوزن السيارتين وفى طريقى للميزان إذ بالتليفون يرن مرة أخرى «بلغ أبانا ص» الذى لايرد على التليفون بأن يأخذ جراراً زراعياً ويذهب إلى المنطقة الشرقية لأنه رؤى بعض العرب هناك حالاً.. حالاً، وضعت السماعة وأرسلت العامل المساعد إلى أبينا «ص» ووزنت سيارتىّ البرسيم وبينما أمسك بضلفة البوابة الحديدية الضخمة فاتحاً إياها لإدخال الأتوبيس حيث لا أستطيع ترك الضلفة فقد تغلق من تلقاء نفسها كما حدث فى السابق وحطمت أتوبيساً سياحياً، وأسرعت إلى التليفون لأطلب راهب المضيفة لأنه يتميز بقوة شديدة، وبينما أنا أطلبه وأشرح له الوضع وإذ بالسيارة الثلاجة جاءت من الداخل ووجدنى السائق مشغولاً ففتح هو البوابة وخرج. وفى توترى هذا إذ بمصيبة أخرى تحدث وكأنما الأرض انشقت عن أتوبيس من صعيد مصر.. فقد هبط جميع من فيه دفعة واحدة، ولم أدر كيف صاروا أمامى جميعهم بهذه السرعة.. هل هبطوا من الأبواب والشبابيك؟! هل هناك زر يفتح جانبى الأتوبيس فى لحظة

واحدة؟! أم تطايروا فى الهواء دفعة واحدة.. شعرت أننى أسبح فى بحر من البشر.. وأضرب بذراعىّ مقاوماً الغرق فتصطدم برؤوسهم فمنهم من يشدنى إلى القاع.. أقوم أتنفس الهواء أحياناً وأحياناً أخرى يمتلىء فمى بالمياه.. الجميع يحدثنى فى وقت واحد.. هذا يريد الدخول والآخر يريد الذهاب إلى الحمام وثالث يطلب ماء.. وأخرى تريد تنظيف بقعة على فستانها.. وآخر يطلب شاياً.. وسادس.. وسابع.. إلخ. لم أعد أدرى كم عددهم بالضبط.. ولكنهم يتفقون على شىء واحد.. الدخول إلى الدير.. ومنهم من تسلل داخلاً بالفعل، وعبثاً تقنع وعبثاً تمنع وعبثاً تتكلم ويصيح العمال مطالبين باستكمال تسجيل بياناتهم لكى يدخلوا ويستريحوا فقد جئنا من الصعيد، وسيارتا البرسيم أريد أن أوزنهما وإن مزقت نفسى إلى خمسة أجزاء لا أستطيع القيام بكل هذه الأعمال، ولئن أحضرتم خمسة رهبان فلا يستطيعوا خدمة غول البوابة، وهكذا كنت أعمل واتخبط وهكذا كنت أتصادم وأمرض، وهكذا كانت البوابة.

مكثت على هذه الحال عاماً، وفى نهايته لم أستطع النوم ولا الأكل وبدأت تزحف على روحى الأمراض النفسية وأرسلت إلى الأب الروحى تقريراً بهذا فلم يرد علىَّ، فأرسلت له ثانية.. وثالثة، ولم يرد فقابلته أسفل التكميبة وشرحت له ظروفى وخاصة وعدم قدرتى على النوم، وفقدان شهيتى بالنسبة للطعام، ويمكر أحالنى إلى الأب (ك) والذى لا يملك تعيين راهب أو نقل راهب وأخبرنى الأب الروحى أن أبانا (ك) فى خلال أسبوع سيبحث لى عن عمل بديل، ومضى عام ونصف العام على هذا الوعد ولم يبحثوا لى عن عمل بديل ولا تم إعفائى من العمل على البوابة. فسقطت بعد عامين ونصف العام طريح الفراش لا أقوى على العمل أو الكلام وكأنى خيال الظل.

وكنا ثلاثة نعمل على البوابة.. كُلٌّ منا ثمانى ساعات فى اليوم ولقد سقطت أنا، وزميلى الآخر ذهب عقله.. أما الثالث فكان بلا عقل من قبل أن يأتينا.

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى سقطت فيها فاقد القدرة والقوة أثناء عملى على البوابة.. بل سبقتها مرة.. ولم تكن البوابة السبب المباشر فيها بل كان السبب أعمال أثقل وأشر منها.

5

أيام فى الفيوم

يدخل الدير فى مزايدات مزارع الدجاج الحكومية للحصول على «الرسمال»(*)، ويحدد المزاد موعد رفع «الرسمال» وإن لم يقم الدير بالرفع فى المدة المحددة يسقط حق الدير فى «الرسمال» ويضيع عليه ثمنه، وللمزارع الحق فى بيع «الرسمال» إلى جهة أخرى، وهذا هو الشرط الجزائى. وأصيب الأب الراهب المكلف بموضوع «الرسمال» فى حادث سيارة وكسرت ركبته وجاء موعد رفع الرسمال، وفى الدير من هم أكثر طاعة منى؟! بل من يزج بهم فى المخاطر أكثر منى؟ وكان العمل لايتطلب الاحتمال فقط بل يتطلب نوعاً من الاستشهاد. وكانت المزارع بالقرب من الفيوم، وتم تحميل السيارة بما نحتاجه للعمل هناك من معدات لازمة ومؤنة وهى عبارة عن جبن قريش وعسل أسود وخبز محمص وشاى وسكر، ووصلنا إلى المزرعة ونصبت لى خيمة بجوار خيمة العمال وكانوا خمسة عشر عاملاً، وفى الليلة الأوولى انتظرت نوم العمال حتى أنام، ولم أنم، وفى الصباح الباكر أيقظتهم ووزعت عليهم الإفطار وقمنا بالعمل طوال النهار وكنت فى انتظار الليل بفارغ الصبر لكى أنام بعد إرهاق السفر والعمل المرهق ووضعت رأسى على الوسادة وغفوت قليلاً.. وإذ بالحشرات ـ البراغيث تحديداً ـ تلدغنى بسوط من لهيب فقمت بمرارة ونزعت عنى ملابس لأجد أسراباً من الحشرات تختبىء فى ثناياها فجلست مقرفصاً ونُزعت من قلبى كل شهوة فى الصلاة أو القراءة.. فكل ما أريده هو النوم.. ولو كان لى ساعتها ثروة الدنيا لدفعتها ثمناً لساعة من النوم اللذيذ، ولو كانت لى كل عروش الدنيا لتنازلت عنها ثمناً لراحتى، وكل ما أملكه هو جلبابى الذى يسترنى وكل عروشى حجراً مسنوداً إلى حائط أجلس عليه من حين إلى آخر، وحاولت النوم دون جدوى، وأرسلت فى

(*) هو مخلفات الدجاج (روث الدجاج)، ولا غنى عنه فى زراعة البطيخ والشمام

طلب بودرة للبراغيث وحصلت على كمية كبيرة منها فنثرت منها القليل على جوانب الخيمة الداخلية بعيداً عن الطعام وأغلقت بابها القماش بعد شوق وانتظار الليل. وإذ بأنفى استشاط ناراً من رائحة البودرة وتقلبت فى فراشى ضاغطاً على نفسى محتملاً لهيب أنفى لكى أنام ولكن أبداً. فالحشرات أسراباً ووضعت طبقة من البودرة على فراشى كافية لقتلى أنا لا الحشرات.. واضطررت لعرض المشكلة على كبير العمال فنبهنى إلى أن سبب كثرة الحشرات هو كثرة الفئران الموجودة وقاموا بعد ذلك بقتل فأر كبير وأحضروه لى وإذ بآلاف البراغيث تسرى فى فروته، وحينما سألت المهندسين المشرفين أخبرونى أننا نربى الفئران كما نربى الدجاج! فمقابل كل دجاجة يوجد فأر!! وفى الخيمة أحسست بقشعريرة تملأ جسدى، لأن فأراً ترك الخشبة المجاورة لرأسى وسار على رأسى وهو ماروع نفسى حقاً.

فى النهار عمل وإرهاق ومتابعة للعمال ومشاجرة مع المهندسين الذين يريدون مغالطتى.. على أننى صارحتهم أننى كنت أعمل مدرساً للرياضيات قبل الرهبنة.. أضف إلى ذلك مشاكل العمال الخاصة، وفى الليل يبدأ العذاب..

> **فبعد الليلة الرابعة بدأ جسمى يرتعش من قلة النوم والصداع الفظيع الذى لا يفارقنى.. ودخل أيضاً فى قدمى مسمار وأصبت بالرعب من تصور إصابتى بالتيتانوس، وتدهورت حالتى النفسية وكانت الكلاب وهى بالعشرات لا تكف عن النباح طوال الليل وفى النهار تأكل الدجاج المشوى، فالدجاج المريض يتم إعدامه بالحرق والدفن ويكتفى الموظفون بالحرق فقط ويتركونه فتأتى الكلاب لتأكل طعاماً شهياً..**

ولكن ما لفت نظرى حقاً وجعلنى أفكر بعمق هو الفرق بينى وبين الموظفين.. بين القطاع الخاص والعام..

> **ففى الدير تقام حملة مرة أو مرتين فى الأسبوع لإبادة الفئران.. أما فى مزرعة الفئران هذه لا يكلف الموظف نفسه جهداً لقتل فأر واحد.**

مكثت على هذا الحال المؤلم خمسة عشر يوماً لم أذق فيها طعاماً جيداً ولم أتمكن من الاستحمام ولم أذق طعم النوم.

وبعد عودتنا إلى الدير توقعت أن يكون الدير كريماً معى مقدراً عذابى فيرسلنى بعد هذه السنوات من العمل إلى الاستجمام على شاطىء البحر أمام برج العرب (الكيلو ٧٠) ولكنى فوجئت بأن أب اعترافى يعيدنى إلى البوابة، فمكثت بها يومين أتحرق ولا أصدق أن الرحمة نُزعت من قلوب الرهبان وأخيراً اضطررت إلى طلب الراحة والذهاب للاستجمام.. فذهبت ومكثت شهراً وهناك تأملت حياتى وأعدت النظر فى قضية الطاعة للرهبان فوجدت أن سبب شقائى هو الطاعة وكنت أمشى محنى الهامة لأن برأسى ثقلاً يزيد على النصف كيلو جرام لا يجعلنى أنصب قامتى وهذه حقيقة لم أكتبها على سبيل المبالغة بل كان لدىّ إحساس مُرّ بأن داخل رأسى حجراً والصداع لايفارقنى وكان هذا فى عام ١٩٨٦ تقريباً..

وقررت عدم الطاعة ومخالفة القوانين والضرب بكلام أب الاعتراف عرض الحائط.. نعم قررت عند عودتى أن انزع الطاعة عنى ولم يحدث تقدم فى حالتى النفسية.. وبعد عودتى إلى الدير وما أن رأيت الرهبان وتحدثت معهم حتى نسيت قرارى بعدم الطاعة وعدت إلى الطاعة والعمل المهلك.

الانتحار فى الدير

(١)

إننى أعرفه، فهو من أترابى، من نفس مدينتى الصغيرة، وصاحب نكتة وعملاق فى الجسم، يلتف حوله الشباب بعد الاجتماعات فى الكنيسة لخفة ظله وتعليقاته الجريئة الجميلة، وكان شاباً خادماً نشيطاً طاف بالعديد من القرى حولنا ليخدم ويعظ، وقد قام بواجبه الاجتماعى، فقد زوّج أخواته الثلاث قبل أن يذهب إلى الدير، ترهبن بديرنا (للأسف الشديد) وكان كما عاهدناه بالبلدة بسيط القلب خفيف الروح، والدير يعرف كيف يستفيد من خبرات الرهبان، بل كيف يوجهها التوجيه الأمثل، فالمهندس الزراعى يعمل بالزراعة، والمهندس الميكانيكى يعمل بالميكانيكا.. إلخ. وعمل صاحبنا بالزراعة.. وبعد سنوات قليلة ربما ثلاث، وفى أحد أيام الصيف بعد الظهر بقليل.. دخلت الدير..

> **وإذ بجلبة وضجة وراهب يجرى هنا وآخر يجرى هناك، وتكسو الوجوه صرامة وجدية وذعر وهلع، ومن الصعب أن توقف أحدهم لتسأله ماذا حدث أو ماذا يحدث؟ وأخيراً أخبرنى أحدهم «أن أبانا فلان ألقى بنفسه من الدور الرابع»، وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن انتحار راهب!!**

هل يمكن أن ينتحر راهب؟ وإذا كنا نستنكر انتحار علمانى - إنسان عادى لاينتمى إلى الدير - فما بالنا بانتحار راهب؟!! أكان السبب ضيق بالحياة، والإسلام والمسيحية على حد سواء حرما الانتحار فهو قنوط من رحمة الله، والمنتحر لايدخل (الجنة). فماذا عن الراهب المنتحر؟ وإلى متى تتحطم أعصابنا؟! ألا تنتهى كوارث هذا الدير؟! أنخرج من حادث لندخل فى حادث أشد قسوة وضراوة من سابقتها؟! وماهو دافع الانتحار الحقيقى؟ وماهى ملابسات الموضوع؟ علىّ أن أذهب لأب اعترافى لأستوضح الأمر. والتقيت به فى اليوم

التالى واستطاع بفراسة الرهبان أن يعرف مايدور بداخلى وخاصة أننى لم أستطع إخفاء ذعرى وخوفى، وقال لى ويداه مازالتا فى جيب البالطو ـ كان يلبسه فى الصيف أحيانا..

«فى حياتك الرهبانية سوف تسمع ماهو أكثر من هذا»، وتركنى وانصرف مسرعاً. ولم يشفِ قلقى بهذا الجواب، بل على العكس زادنى اضطراباً وهلعاً.

هل يجب علىّ أن أصبر وأتحمل لأعرف حقيقة ماحدث؟ وأتحمل كل هذا على أعصابى، وفجأة جاءنى أمر من الأب الروحى على لسان مساعده ويده اليمنى: «أبونا الروحى يقول لك تفرغ من أى عمل لاستقبال أبينا (فلان) وتمريضه بعد عودته من المستشفى»، وعلى الرغم من خطأ الإنسان إلا أن الله يتدخل بلطفه ورحمته، فقد انقطع التيار الكهربائى قبل سقوط أبينا «فلان» بدقائق.. فقد سقط على أسلاك الكهرباء الغليظة لا لتصعقه بل لتخفف من صدمة السقوط إلى الأرض مباشرة.. ثم تلقفته أذرع نخلة صغيرة أسفل الأسلاك.. فكانت صدمته بالأرض فى نهاية المطاف خفيفة نتج عنها كسر فى العمود الفقرى وجرح بالفخذ ومكث شهرين بالمستشفى. ونما إلى مسامعنا أن أعصاب ذلك الراهب متوترة وهو فى المستشفى فلا يكف عن الصياح والصراخ والهياج.. وأشار المستشفى بضرورة عودته إلى الدير فلا فائدة ترجى منه اللهم إذا حدثت معجزة. خيم على الدير حزن، فلا هرج ولا مرج والتزم الجميع بالصمت وكانوا يسيرون وكأن على رؤوسهم الطير.. وواظب الجميع على الصلاة من أجل هذا الراهب.

وكنت آنذاك أعمل بالبوابة الخارجية ورفض زميلىٌ على البوابة أن آخذ إجازة لعدة أيام قبل المهمة الجديدة. وسألت الأب المشرف عن هذا الراهب متى سيحضر إلى الدير فأجاب:

ـ أتتعجل مجيئه؟ سوف يأتى وتشرب المر!!

وجاء الراهب.. كان نصفه السفلى لايتحرك ولا يحس به إطلاقاً وبالطبع لايتحرك من الفراش ولا حتى يستطيع الجلوس فيه فهو ممدد دائماً.. أطعمه فى

فمه.. فذراعاه متورمتان من كثرة الإبر فيهما.. وأعطيه الأدوية فى حينها وأقوم بتنظيف جروحه.. بل أنظفه كله بالكولونيا.. وأقوم بتغيير وضعه فى الفراش كل ساعتين حتى لايصاب بقرحة الفراش وأقوم بأعمال أخرى شاقة على النفس لعل القارىء العزيز يفهم ما أقصده. ولو كان هذا كل شىء لهان الأمر ولكن الأصعب هو احتمال النفس المريضة.. فالأمر والنهى بسلطة والصياح وعدم الرضا لأتفه الأسباب والثورة على كل شىء، فمرور ذبابة فوق فراشه كافية بإضرام نار غضبه.. فيقوم بصب سيل من الاتهامات والانتقادات اللاذعة. ولم أسلم من السب والشتائم أيضاً.. هُدرت كرامتى.. وعلى الرغم من كل هذا لم يسمع منى كلمة (أف) واحدة ولكننى كنت أختلى إلى نفسى وأتضرع إلى الله.. يارب أعطنى القوة والاحتمال فهذا فوق طاقتى.. وكنت مع ذلك بشوشاً فى وجهه بالرغم مما أعانيه، فالممرض الذى يعمل مقابل أجر ـ راتب ـ لا يعطى كثيراً ولا يبذل نفسه ولا تأتى خدماته بالنتائج المرجوة وتطول مدة شفاء مرضاه، أما الممرض الذى تذوب روحه من أجل مريضه فهو الطبيب الحقيقى للروح وللجسد، إنه يذوب من أجل من لا تربطهم به علاقة سوى حاجتهم لخدمته.

إننى أومن حقاً أن الله سيحسن إلى الممرضين كافة ويجزل المكافأة لأولئك المحبين مهما اختلفت أجناسهم أو أديانهم.

وكان الرهبان يصلون من أجلنا (أنا والمريض) فكلانا يحتاج إلى الصلاة.. إنها لفتة كريمة من الرهبان فهم قلب واحد وصلاة واحدة وإحساس واحد. ولكن يجب أن نفرق بين نوعين من الرهبان.. فالراهب العامل المسحوق شىء، والراهب القائد والرئيس والمسيطر شىء آخر تماماً.. الرهبنة شىء والرهبان شىء آخر..

> **فقد يوجد راهب لا علاقة له بالرهبنة ولا بقوانينها ولا يمت بصلة إلا إلى الشيطان.. وربما يشترك بالتخطيط معه.. ولا أبالغ إذا قلت إننى كثيراً ما رأيت راهباً يفعل مايعجز الشيطان عن إنجازه من الشر. ورأيت الراهب معلماً والشيطان جالساً تحت قدميه.**

واستجاب الله لدعائى ولتوسلات الرهبان الغلابة.. فبعد حوالى الشهرين والنصف وبينما أنظف ما بين أصابع قدميه قال لى: «إننى أحس بأصابعك»، ولم

أصدق ما سمعت فضغطت على أصابعه أكثر فأكد إحساسه، فأحسست بنشوة عارمة تجتاح نفسى وجسدى.. ولم تكن مفاجأة كلية بالنسبة لى فقد كان هناك أمل.. أتوقع فيه شفاءه بين لحظة وأخرى.. وسجدت وشكرت الله.

قليلاً.. قليلاً حرك قدميه وجلس على الفراش، وكنت أشجعه بكل ما أملكه من قوة الإيمان.. حتى تمكن من الوقوف على قدميه بمساعدة عكازين وخطوة وأخرى وثالثة حتى تمكن يوماً من الدخول إلى دورة المياه وكان فرحى عظيماً وسعادتى بالغة، وخرج للجلوس فى الشمس بمساعدتى والعكازين، وفرح الرهبان جداً وكانوا يباركونه ويقبلونه ويقبلوننى. فقد كان ممنوعاً بالنسبة لهم الدخول عليه أو التحدث معه بأوامر تعسفية من الدير، ولكن هاهو يتماثل للشفاء ويخرج بنفسه لهم. وقد خفت حدة طباعه قليلاً، وبدأ يعرف الابتسام والضحك، وهاهو الآن يحبنى ويثق بى ويتحدث إلىَّ وشعرت أن هذا هو الوقت المناسب لسؤاله عن سبب الانتحار، قال لى: أنت تعلم أننى أعمل مع أبينا (ى) فى الزراعة وهو قاس وعنيف وحاد الطباع، ولم أكن أتوقع أن الرهبان هكذا.. لم أعهد هذا من قبل لا فى الكنيسة ولا فى الوظيفة.. ولا تهدأ ثورة أبينا (ى) وخلافاته معى بل تتفاقم وتتعقد.. واحتملته كثيراً وعندما ضاقت نفسى كنت أكتب لأبينا الروحى الذى كان يهدىء نفسى ويشجعنى فأمضى قُدماً فى الاحتمال والصبر(*).

وذات مرة ضاقت نفسى من معاملة أبونا (ى) فكتبت للأب الروحى..

وكانت المفاجأة، ففى الصباح حضر أبونا (ى) للعمل ومعه اعترافى الذى كتبته قائلاً إن أبونا الروحى يقول لك «أنا تعبان، وليست لى قدرة على قراءة الاعترافات والرد عليها ولا تكتب لى بعد ذلك» وقوموا بحل مشاكلكم بأنفسكم».

الآن نستطيع وضع أيدينا على أسباب تفجر هذه المشكلة..

أولاً: سد الأب الروحى المنفذ بل والمنفذ الوحيد على هذا الراهب

(*) ملحوظة: بكتب الاعترافات للأب الروحى فيتدخل لإيجاد حلول للمشكلات التى توجهنا ويقوم بتسوية الخلافات فيما بيننا وهو المتنفس الوحيد لدى الرهبان للبوح بما يعتمل داخل نفوسهم، وخاصة أنه يُحظر الحديث بين الرهبان بعضهم البعض إلا فيما يخص العمل.

الصغير الذى يحتاج المساعدة والتشجيع حتى يشتد عوده، بالإضافة إلى أننا فى مجتمع مغلق يمنع فيه التحدث عن الهموم الداخلية مع أى شخص سوى الأب الروحى.

ثانياً: الكيل بمكيالين.. فهناك رهبان كبار مسئولون عن الأعمال ولهم كل الصلاحيات وهم موضع ثقة الأب الروحى حتى لو تجبروا وافتروا.. ولا أشك لحظة واحدة أنهم كانوا على اتصال به ويرد على تقاريرهم واعترافاتهم.. ومنهم من كان يجلس معه ساعة وساعتين.. ورهبان صغار لاحول لهم ولا قوة ولا يسمح لهم حتى بالشكوى أو التظلم من الاستبداد الواقع عليهم.

ثالثاً: إفشاء سر الاعتراف.. وهنا تكمن الخطورة.. فكيف نثق فى الأب الروحى بعد ذلك؟ أتسلم المستجير بك إلى ظالمه.. وأنت أبوه ومسئول عن الدفاع عنه وحمايته؟

رابعاً: إن وحدة أى كيان اجتماعى تقوم وتدوم على أساس وحدة قوانينه وأعرافه، فإذا كنت أنت أيها الأب الروحى المشرِّع الوحيد لضمان وحدة الدير وهاأنت تلقى بمسئولياتك وتهرب، ألا تعطى الفرصة بعد ذلك لكل راهب أن يشرِّع مايريده؟ وإن حدث ذلك ألا يتحول الدير بعد ذلك إلى غابة؟!

أروى الآن ماحدث وقت انتحار الراهب.. تزعزت ثقة الراهب فى الأب الروحى وشك فى كل شىء وسمع صوتاً ينادى أنزلوه مع السيارة الثلاجة. فظن أن الدير سوف يطرده وأنه هو المقصود بكلمة (أنزلوه) فأسرع إلى المبنى المجاور لسكنه وصعد على الدرج إلى سطح هذا المبنى ثم ألقى بنفسه فى الهواء. فقد كان حريصاً أن يموت ولا ينزل إلى العالم.

فالكنيسة قد صورت لنا منذ نعومة أظفارنا أن الرهبنة هى حياة القداسة والعفة.. إلخ. وربط الدير بين الدخول فيه ودخول الجنة إلى الدرجة التى كتب فيها الأب الروحى «إن الراهب الذى يترك أباه الروحى يقرر مصيره الأبدى.. يترك الجنة ويذهب إلى نار جهنم».

كما أن نظرة العلمانيين تجاه من ترك الدير كنظرتهم إلى مرتد قبيح ترك الحياة مع الله ليتمرغ فى شهواته، هذا بالإضافة إلى أننا نفقد وظائفنا وأموالنا وأصدقاءنا وكل ما لنا فى العالم قبل الرهبنة، أضف إلى ذلك تقدمنا فى السن.. لذلك كانت فكرة العودة إلى العالم العلمانى بالنسبة له فكرة مستحيلة.

كان صاحبنا يتماثل للشفاء ويستطيع أن يخرج بمفرده معتمداً على عكازيه ولكن معاملة الدير السيئة له ونظرتهم له على أنه وصمة عار فى تاريخ الدير والرهبنة كلها.. قد كسرت روحه، وكسر الروح أعمق وأبلغ من كسور الجسد، وعلى الرغم من دخوله المستشفى العسكرى بعد ذلك لتلقى العلاج الطبيعى إلا أن هذا لم يحرز أى تقدم بالنسبة لحالته، وأعادوه لى بعد عدة شهور وتوليت علاجه الطبيعى إلا أن جهودى ذهبت سُدى لأنه كان يرفض الحياة فى داخله..

وتركته وتركت الدير وسمعت بعد خروجى أنه عاد وطعن رقبته بسكين ودخل المستشفى القبطى ومات هناك.

(٢)

ولد «رفعت»(*) بقرية هادئة من أعمال الصعيد، ورزقت به والدته بعد انتظار دام أربعة عشر عاماً، وكانت امرأة هادئة مرتبة تحب الحق وكلمتها مستقيمة، وتربى الطفل الجميل على ساحل البحر اليوسفى وتشبع من جماله وجمال الطبيعة هناك، مما أكسبه هدوء الطبع مع حلاوة الأمل فى النفس، وكان كوخهم ملاصقاً لبرج الحمام الذى يملكه (زكى أفندى)، وكم من ساعات أمضاها فى طفولته متأملاً فى الحمام وبيوت الحمام، وكانت كنيسة القرية صغيرة وجميلة وكاهنها شاب محب للأطفال والشباب فأحبه رفعت والذى كان يذهب مع والدته خلف أبيه المسن إلى الكنيسة ليلاً، أما فى يوم الأحد فيذهب إلى القداس مبكراً ولا تجده والدته فى فناء الكنيسة مع الأولاد، وكان لا ينام أثناء الصلاة.. ينصت إلى كل كلمة تقال، أما (السنكسار) وهو أخبار القديسين فهو يحفظه عن ظهر قلب ويعشق سير الرهبان وأمجاد الشهداء الذين ضحوا بدمائهم دفاعاً عن الإيمان وتمسكاً بدينهم القويم، وسمع رفعت أن عمى (صالح) يذهب للفلاحة بأرض الدير.. إذن فهو يرى الرهبان.. فمتى يحمله إلى هناك؟ حيث ملائكة الله فى ثوب أسود. وسأل زوجة عمى (صالح) عن موعد قدومه، وأجابته عن سؤاله بسؤالك لماذا تسأل عن عمك صالح؟ لاشىء، أجاب رفعت، وحضر عمى صالح، وانتظر (رفعت) حتى وجده بمفرده فباح إليه بشوقه، فرد عليه أنت مازلت صغيراً. فبكى. وكبر (رفعت) وكبر معه حب الأديرة والرهبان وقرر الرحيل مع العم (صالح) وبكت والدته المسكينة وودعه والده المسن. كان قلبه يسابق السيارة ويتمنى أن تتحول إلى طائرة، وعندما دخل الدير أصابته حالة من الذهول وكأنه دخل الجنة.. وفور وصوله حضر كل فرد من بلدته للترحيب به.. فهو شاب محبوب ودمث الخلق، وبات تلك الليلة وهو يحلم أحلاماً وردية، وفى الصباح تم اختياره للعمل فى الحظيرة، ووجد فى الحظيرة راهباً صغيراً أحبه وعطف عليه. وذات يوم لمح «رفعت» الراهب المدير فتوجه إليه ليقبل يديه، وإذ به ينظر إليه باحتقار ويتركه دون أن يرد السلام، ان الراهب المدير ـ مدير الحظيرة ـ...

لا يصلى ولا يذهب إلى الكنيسة لأنه لايحب مقابلة الحاقدين

(*) أسماء الأشخاص فى هذه القصة مستعارة ولكن الأحداث حقيقية.

عليه، ويقتل نفسه فى العمل لأنه ناقم على جميع من فى الدير، وقال لى ذات مرة «إن البهائم هى كل ما لديه فى الدير»، فالدير مجموعة من الخونة أما الأب الروحى فهو كذاب، وروى لى كيف كذب الأب على مجموعة أطباء بيطريين حينما سألوه: هل بهائمكم محصنة ضد كذا؟ فأجاب بالإيجاب، وكان الراهب المدير يسير كالآلة ولا يحمل اية مشاعر لأحد.. بل تتجسد الكراهية فى افعاله وتصرفاته تجاه الجميع.. وكنت اشعر كثيراً أنه جاموسة متوحشة، وكان يحب الضحايا ويبحث عنهم، وما أن ينتهى من ضحية حتى يلقى بشباكه حول الأخرى.

ووقع رفعت فى شباك هذا الشيطان فاضطهده تارة ولاطفه أخرى ليوقع به.. فهذا هو أسلوبه فى التدمير.. أسلوب يقوم فى البداية على إقامة علاقة صداقة قوية مع الضحية حتى لا تستطيع أن تنفصل عنه فيما بعد.. ولم يحتمل المسكين لا الفكاك من هذا الشيطان ولا أن يترك الدير.

وذات يوم صعد رفعت إلى سطح خزان المياه الموجود فى الحظيرة والقى بنفسه من فوقه، ويجرى عليه الراهب الشاب ويحتضنه ويبكى بقوة، ويذهب رفعت إلى المستشفى ويعود بعد فترة إلى الدير ولكن على الكرسى ذى العجلات للسلام على الراهب الشاب.

أظلمت الحياة بجملتها فى وجهى ولم يعد لها طعم.. لقد علق رفعت كل آماله على الرهبان والحياة المستقيمة والخلود الأبدى، وهاهو يرى عينة من الرهبان فماذا بقى له فى الحياة ليعيش من أجله؟ أن يخسر عمله أو نقوده أو حتى زوجته أشياء كلها يستطيع أن يتحملها الإنسان.. أما خسارة القيم الروحية فهو الضياع ولا شك، ولست أحمّل الراهب المدير المسئولية كاملة، فالكنيسة هى سبب البلوى، فقد صورت الرهبان كملائكة يعيشون فى السماء.. صورت الكنيسة الزاهد فى الدنيا بالمتوشح بلباس الله، والبعيد عن النساء بالجالس فى حرم الله، ونسيت الكنيسة أن الرهبان أناس مثلنا يمكن أن يخطئوا ويقعوا فى المعاصى.. فحتى الأنبياء وقعوا فى الأخطاء والمعاصى، أما الرهبان فهم معصومون من الزلل.. متى تتوقف الكنيسة عن ترديد هذه الشعارات وتعلن للناس أن الراهب

هو مجرد إنسان عادى ربما أسوأ من العادى.. أليس الرهبان هم الذين خرّبوا الكنيسة فى القرون الوسطى؟ أليس بتعاليمهم أظلمت العقول والقلوب وارتكبوا مفاسد لا حدود لها؟!

لم يحب الله أحداً مثلما أحب الملك داود وقال له: «فتشت قلب عبدى داود فوجدته مثل قلبى».. وعلى الرغم من هذا حينما أخطأ الملك داود وزنا مع امرأة (أوريا) فضحه الله ولم يستره بل عراه فى كل جيل ـ وفقاً للكتاب الذى بين أيدينا ـ ولكن الكنيسة تضع البودرة على الرهبان حتى يتجملوا وبداخلهم يعيث الصديد فساداً فى قلوبهم.

وهناك حادثة انتحار راهب ـ حدثت فى دير آخر ـ أحب أن أسجلها هنا.. وربما تكون حادثة قتل، فقد كان لدى الراهب المنتحر كاميرا للتصوير واستطاع أن يصور أحد الرهبان فى وضع مخل مع فتاة تتردد على الدير، فنشبت الخلافات بين الراهبين، وتاقت نفس الراهب الماجن إلى الانتقام، وبعد عدة أيام وُجِدَ الراهب الأول فى غرفته مخنوقاً بحبل وتدل هيئته على الانتحار.. ولكن الله أعلم بالحقيقة!!

أما أنا فعملت مع الراهب المدير ناسياً مافى قلبه من حقد للآخرين، وخدمته خدمة العبد للسيد.. فكم من المرات نظفت له غرفته، وكم من المرات صليت من أجل شفاء روحه. والحقيقة أنه كان بارعاً فى الطب البيطرى فتعلمت منه الكثير، وكنت هادئاً وقوراً محباً لعملى.. وتفوقت فى تعلم أشياء كثيرة فى هذا المجال.. لا لإثبات وجودى ولكن لأن النجاح قد يخرجنى من حالات الاكتئاب النفسى التى تغزو نفسى بين الحين والآخر، وذاع صيتى فى الدير ولم يكن أمام صاحبنا ضحية فى ذاك الوقت، وأدركت أننى الضحية المرتقبة لصاحبنا، فإذا أمرت العمال بالقيام بعمل ما، أمرهم هو بالعكس حتى ولو على حساب مصلحة الدير، فلا تهم الخسائر ولا المصلحة العامة.. كل ما يهمه هو الانتقام من ضحيته، وكثرت مصادماته معى.. وكان يحتقرنى ويسخر منى أمام العمال، ويزجرنى أمامهم قائلاً: «عد إلى الدير».. وذات صباح طردنى من العمل وأمرنى بالعودة إلى الدير قائلاً: «لم تعد صالحاً للعمل معى»!!

السحر فى الأديرة

ما أكثر آيات الكتاب المقدس التى نهت عن السحر وحرمته بصورة قاطعة «لا تدع ساحرة تعيش» (خروج ١٨ : ٢٢)، وما أكثر الآيات التى اقترنت فيها عبادة الأصنام بالسحر، فالأولى كفر بالله والثانية معاشرة للشيطان وترك عبادة الله.. وربما يستغل الشيطان الراهب الراغب فى السحر استغلالاً يصل إلى درجة سجود الراهب للشيطان.

ومن الغريب أن الذين أعلنوا أنهم يعبدون الشيطان تمت محاكمتهم - فى مصر - والذين يعبدونه خفية ويخدعون الناس لا أحد يعرفهم.. بل ربما يكرمهم الناس.

منذ الصغر ونحن نسمع أن للرهبان باعاً طويلاً فى السحر، وسمعنا أن راهباً ظل طوال ٤٠ عاماً يقرأ على كومة من بذور النخل وإذ بها امرأة تقوم على خدمته.

لم يكن لدىّ وقت أو جهد لتنظيف غرفتى إلى الدرجة التى تجعلها مملوءة بالتراب دائماً وهو ما كان يؤذى أنفى وصدرى وحينذا لا مناص من النظافة.. وذات مرة رفعت المفرش الذى يكسو الطاولة الموجودة فى الغرفة لأجد أسفله ورقة غريبة عبارة عن قصاصة مطوية بطريقة عادية ولكن الكتابة الموجودة عليها مائلة ومكتوبة بعناية بحبر أزرق وأحمر ويوجد فراغات بين فقراتها وكل فقرة متصلة بسابقتها بخط، ولكنى لم أستطع قراءة أى حرف منها..

وحينما امسك اب الاعتراف بالورقة سرعان ما تعرف عليها وقال هذه لأبينا (الشيخ) فلان.. ماذا فعلت له؟ وتذكرت أن خلافاً بسيطاً شب بيننا منذ نصف عام ولا يستدعى هذا الخلاف الانتقام منى بواسطة السحر، وهل وصلت شهوة الانتقام إلى حد استخدام

السـحـر؟! والمذهل فى هذا الموضـوع أن هذا الراهب كـاهن والكاهن يجب أن يكون نقياً من كل زلة، ويردد الكاهن فى صلاة رفع البخـور «ارزقنا رحمـتك واقطع عنا كل رباطات خطايانا وإن كنا قد أخطأنا إليك فى شئ بعلم أو بغيـر علم أو بالفعل أو بالقـول.. اللهم أنعم علينا بغفران خطايانا وباركنا وطهرنا».

ومع ذلك يضمر الحقد والانتقام فى قلبه، مما دفعه لينتقم منى بالسحر ويخطط لوضعه لى فى غرفتى وأتخيله وهو يقف أمام غرفتى بعد أن تأكد من عدم وجودى بها ويلتفت يمنة ويسـرة كاللص، ثم يدخل ويضع الورقة أسفل المفرش؟ وإذا سـألتنى لماذا لا أغلق غرفتى بالمفتاح؟ أجيبك أن الغرفة وتسمى عندنا (القلاية) ليس لها مفتاح، كما أنه لايوجد سوء نية إطلاقاً فى إخواننا الرهبان، زد على ذلك لايوجد فى (قلاية) أى مبتدئ شئ يميزها عن جارتها، فكل (قلاية) تحتوى على طاولة وكرسى وفراش وغطاء ونفس الكتب وحصيرة وأدوات للأكل.

إذن فالصلاة تمثيلية يقوم بها الكاهن بمعاونة الشمامسة، وما أدرانى ما الشمامسة، ربما كانوا أسوأ وأضل سبيلاً، ويصلى الكاهن أمام الشعب فى صيام الأربعين قائلاً:

«اللهم اقبل صومنا واغفر لنا آثامنا واصفح عنا زلاتنا وامنحنا كمالنا المسيحى».. أى كمال يطلبه هذا الساحر؟! أيريد الوصول إلى قمة السحر؟!

وهل الله يغفر للشعب من أجل توسط الكاهن كما نعتقد؟ صدقنى لو كان الله يغفر من أجله لأمطرت السماء ناراً وكبريتاً، ولكنه يغفر من أجل المصلين. فمن أجل الشعب لا يوقع الله عقابه على الكهنة.. بل يصبر عليهم ويمد لهم فى أعمارهم من أجل آلام ومعاناة الشعب.

أتكون اليد التى تخدم الله وترتفع بالصلاة والدعاء من أجل الشعب هى اليد التى تخدم الشيطان؟! كيف يجتمع المقدس مع المدنس، والنور مع الظلمة؟!

وقد وصلت شهرة الرهبان فى السحر إلى الدول العربية المجاورة.

8

ضمير راهب

إننى لا أكتب كل يوم وأتعمد أن أهرب من هذه الذكريات لكى لا تحاصرنى.. ولكنها تنجح فى النهاية فأجدنى غارقاً فيها فأشعر بالاكتئاب والإحباط حتى أصل إلى مرحلة لا أحتمل فيها شيئاً فأصاب بالتوتر، وربما أصل إلى درجة الإنهيار وأظل مع ذلك أقاوم يوماً أو يومين وأحاول الفرار من هذه الأحاسيس فأتعمد كتابة حادثة أستطيع تحمل ذكرياتها.

لابد أن يجتاز طالب الرهبنة اختبارين لكى يتم رسمه كراهب، والاختبار الأول - مبدئى - ويجرى عليه وهو مازال يرتدى ملابسه المدنية - العلمانية - وتطول أو تقصر مدة الاختبار حسب الدير، ولكنها لاتزيد فى أقصى الأحوال على بضعة شهور، وهذا الاختبار دقيق للغاية، فكما كانت تفحص الذبيحة فى العهد القديم يفحص طالب الرهبنة حيث إنه قدم نفسه ذبيحة وقرباناً لله، وكما كانت تُرفض الذبيحة العمياء أو العرجاء (ملاخى ١ : ٨)، أيضاً يتم رفض الذبائح البشرية إذا كان بها أى عيب، فالهيئة والمنظر والشباب والحيوية أشياء مهمة للترهبن، وإن نفى بعض الرهبان أهمية ذلك، وإن قالوا نحن نهتم بالروح أكثر من الجسد.. فهذه أكاذيب، فالقوة الجسمانية مطلوبة فى الدير، وإلا كيف سيعمل المتقدم للرهبنة فى الطاحونة المسماة بالدير لعدة سنوات؟!

> **الرهبان دائماً يتغنون بمثل هذه الشعارات الضخمة الرنانة وأفكارهم غريبة بعيدة عن الحياة البشرية.. ولعلهم يؤمنون بها إيماناً كاملاً.. بل ربما يقتنعون بها ويصدقون أن هذه الأفكار نابعة من قلوبهم وعقولهم.. أليسوا مصدر الخير والبر على هذا الكوكب؟!**
> **ألا ينظر الله إليهم فى الصباح فيبسط الخير والرزق على خلقه؟!**
> **ألا يقبل الله صلاتهم فيرفع مقته وغضبه عن العالم؟!**

وتفحص دوافع المتقدم للرهبنة وشهادته العلمية، وياحبذا لو كانت شهادة عليا أو دراسات عليا (بعض الأديرة تفضل ذلك)، بالإضافة إلى فحص وظيفته وعلاقته بالكنيسة وعلاقاته العامة.. إلخ.

أما الاختبار الثانى وهو الأصعب وتسمى فترته بفترة (تحت الاختبار) ويطلق على طالب الرهبنة (بالأخ تحت الاختيار)، ويلبس فيها الطالب جلباباً له لون معين يختلف باختلاف الدير أزرق ـ أبيض ـ بنى.. إلخ. وفى هذه الفترة يتسلم الطالب عملاً ويكون مسئولاً عنه، وغالباً مايكون بالمطبخ أو المخبز. وهذه الأعمال شاقة ومتعبة وبها كثير من الصدامات والخلافات، وهى لذلك تبين قدرة الطالب على الاحتمال.. وربما تكون الحكمة من هذا العمل معرفة درجة اهتمام الطالب ببطنه. فالبطن مصدر قلق حتى للرهبان المتقشفين والذين ظنوا أنهم قطعوا عن أنفسهم شهوة البطن(*) بسكين النسك. ومدة هذه الاختبار من سنة إلى ثلاث سنوات ـ حسب آخر قانون ـ وإذا اجتاز الطالب هذين الاختبارين رُسم راهباً وأعطوه اسماً جديداً وتبدأ حياة الرهبنة.. الحياة الروحية والتى تنتهى بالنعيم الأبدى والخلود مع الله. فالدير بمثابة (الترانزيت) الذى نتزود منه ثم ننطلق إلى المدينة السماوية.. فهكذا كنا نتصور.. لذلك كنا نحرص كل الحرص على مساعدة إخواننا المبتدئين.

وذات يوم جاء إلى الدير طالب رهبنة.. فى أواخر العقد الثالث من عمره.. جميل الوجه.. أحمر اللون، شعره ناعم أسود كالفحم، وامتدت فترة اختباره الأول لشهور عديدة.. وطُلب من الأشخاص المعروفين بأنهم «مفضلون» الصلاة من أجل هذا الأخ فهو غير ثابت ومشتت الفكر. طلبنا من الله أن ينير له ذهنه ويبصر عينيه ليتمسك بالدير والحياة فيه وليتنا طلبنا من الله أن يطمس عينيه ويضع على عقله كل أحجار العالم ليعود من حيث جاء، آه لو علمنا نهايته لطلبنا من الله أن تنزل صاعقة من السماء وتقضى عليه وتريحه من الدير وينعم بهدوء القبر وسكينته، وقد توسلت إلى الله وتضرعت إليه كثيراً من أجل هذا الأخ، وأنا أكثر من أصابتنى شروره، فقد ضيق علىَّ حتى الموت.

(*) أتذكر أن واحداً من المتوحدين ـ الذى يسكن بعيداً عن الدير فى مغارة بمفرده ولا يلتقى بإنسان ـ كان يرسل إلى الدير طالباً غسل البطيخة التى يرسلونها له بالماء والصابون وكان يغضب إذا تبين له أنهم لم يفعلوا ذلك!

لبس الأخ جلباب تحت الاختبار وفى البداية لم يظهر منه أى شىء يسىء إليه.. بل على العكس من ذلك فقد كان ضعيف التركيز وقليل الحيلة وتشعر تجاهه أنك أمام (أبله) فكنا نشعر بالعطف والشفقة عليه..

هل كان ممثلاً بارعاً؟ ربما، هل حولته عوامل الكبت والحرمان وقوانين الدير إلى عكس ذلك؟! ربما أيضاً.. فبعد ترسيمه كراهب تحول إلى إنسان لايتحمل مسئولية ولا يبالى بأى شىء ولم ينفع فى عمل ما وظهر حقده وغباؤه وفشله ولم تظهر فيه رائحة المسيح ولم يطبق الإنجيل، ولم يحترم قوانين الرهبنة..

مساكن الرهبان يحيط بها سور وتسمى بالدير. وللسور بوابة داخلية يتناوب عليها الرهبان لتسجيل أسماء الرهبان ومواعيد خروجهم ودخولهم من وإلى أعمالهم فمعظم الأعمال تقع خارج هذا السور.. الأراضى.. المزارع.. الورش.. المعامل.. إلخ. ويحيط بكل هذه الأراضى، ويبلغ طول السور (٥) كيلومترات وعليه بوابة خارجية، ويأتى العمال والفلاحون من صعيد مصر للعمل بالدير مقابل أجر (يومية) بالإضاف إلى أن الدير يوفر لهم المأكل والمسكن ويأتى الطلبة فى الصيف لنفس الغرض ولكن بأجر رمزى، وكنت من بين الرهبان الذين يميليون للعمل مع الطلبة نظراً لثقافتهم وشخصياتهم المتميزة بالانطلاق والحيوية بالإضافة إلى كفاحهم وفقرهم، تماماً مثلما كنا نفعل، نعمل فى الصيف وندرس فى الشتاء.. ونظراً لحجم العمل الهائل وتنوعه يقوم الراهب بعملين أو أكثر فى اليوم الواحد، ولمدة تصل إلى أكثر من ستة عشر ساعة يومياً. وفى هذا الصيف كُلف الراهب المشرف على المخبز بالإشراف على تنظيف الدجاج المذبوح يومياً(*)، والمسافة بين المخبز وماكينة تنظيف الدجاج أكثر من (٢) كيلومتر، ونظراً لصعوبة هذا العمل كلف الراهب الخباز ثلاثة من الطلبة والذين أنهوا امتحانات الشهادة الإعدادية وينتظرون النتيجة بتنظيف الدجاج والمطبخ ومسح أرضيته بالجاز الأبيض وتركهم وذهب إلى مخبزه، وذهب الطلاب الثلاثة لإحضار الجاز الأبيض من البوابة ولم يجدوا الأب البواب فى مكان عمله فقد تركها وذهب ليستمتع بالنوم.. وكانوا

(*) يمتلك الدير مزرعة بها أكثر من ٤٥ ألف دجاجة.

قرويين فأخذوا البنزين بدلاً من الجاز الأبيض وبدأوا يمسحون به أرضية المطبخ..

وانتفضت مذعوراً من النوم على جرس الكنيسة الذى دق ثلاث دقات، ومعناها أن هناك خطراً، وعلى الرهبان أن يلقوا مافى أيديهم ويتوجهوا بأسرع مايمكن إلى مكان الخطر.. وخرجت حافياً بأثمالى البالية فقد اشتعلت النار فى المطبخ وسمعت صراخ الأولاد.. كان صراخ استغاثة لم أسمعه من قبل.. صراخ من يقاوم الحرق والموت والألم.. كان وقعه على أعصابى قوياً للدرجة التى تجعلنى أكاد أن أختنق وأنا أسجل هذه الذكريات، المهم قام الرهبان بإطفاء الحريق وهدأ الدخان قليلاً ليخرج منه ثلاثة أجساد محترقة.. يا إله السموات كدت أن أسقط مغشياً علىّ، أحسست أن روحى تشيخ وأننى على وشك الإنهيار.

وفى الحال لف الأطباء القطن الطبى حول الأجساد المحروقة وتم نقل الأولاد إلى مستشفى بالقاهرة وبكى بعض الرهبان، ومرت حوالى ساعتين بعد الحريق وارتديت ملابسى لأذهب لعملى وعندما اقتربت من البوابة وإذ بصوت ذلك الراهب النائم يجلجل بالضحك.. المجرم الحقيقى وقف يضحك على تسببه فى قتل ثلاثة أطفال!!

لقد نسيت الكثير من تفاصيل الحادث ولكن ما لايمكن أن يغيب عن ذاكرتى الضحكات المجلجلة لهذا الراهب المجنون.. يتسبب فى حرق ثلاث زهرات صغيرات ويقف يضحك.. أين قوانين الإنسانية؟! ألا يشعر بالندم؟! ثم إن هذا عمله الوحيد يعمل لدة سبع ساعات فقط، ولديه سبعة عشر ساعة للنوم يومياً، فأين ضمير هذا الراهب؟!

بعد عدة شهور عاد الأولاد من المستشفى ورأيتهم وبكيت عليهم من أعماقى فقد تشوهت وجوههم.. وتوقف أحدهم نهائياً عن الدراسة بعد تدميرهجسدياً ومعنوياً.

وأين مسئولية الراهب الخباز؟ كان يجب عليه أن يتأكد من وجود الراهب

البواب وإن لم يجده كان عليه أن يحضر للأطفال الجاز الأبيض بنفسه. وأعتقد أن المسئول الأول والأخير أمامى وأمام الله وأمام المجتمع والضمير الإنسانى هو الأب الروحى للدير.

ولم يحتمل الراهب المستهتر طويلاً فقد حدث له بعد ذلك انفجار فى المخ ومات وهو لم يصل إلى الخامسة والثلاثين من عمره.

9

الجريمة فى الدير

كان أخى بالجسد - شقيقى - يعمل بإحدى الدول العربية وقد ترك العمل بها وأراد أن يأخذ جرعة من الروحانيات، ويكمل بقية حياته عابداً مصلياً. لذلك التحق بالدير الذى كنت فيه، التحق كعامل فى ورش الدير، واشعل الصراع النفسى بداخلى وتنازعتنى رغبتان.. الأولى هى الاجتماع به، فالحنين يشدنى إليه، فقد كانت تجمعنى به «الطبلية» والطبق الواحد والآمال والطموحات والآلام المشتركة، وذلك أثناء حياتى السابقة على الدير، والثانية هى رغبتى فى عدم التحاقه بالدير حتى لا ينهار أمامه الدير بكل صوره المثالية والمرسومة فى ذهنه. وكان من بين الآباء العاملين بالورش الأب (ث)، وهو حاد الطباع متكبر وكان مهندساً قبل الرهبنة ثم التحق بالدير ليعمل بالورش، وكانت بينه وبين أحد الآباء خلافات شديدة وتفاقم الخلاف بينهما ذات يوم ليصل إلى الاشتباك بالأيدى والضرب بـ(الشباشب).

أحزننى الأمر بشدة خاصة أن أخى كان بالورشة أثناء هذه الحادثة، فقد قدم إلى الدير ليتعلم من الرهبان القيم الروحية والمبادىء السامية فإذا بأول دروسه هو «كيفية الضرب بالشباشب»، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل وصل إلى حد التراشق بأقوال وأسرار يَندى لها الجبين.

وذات يوم خرج الأب (ث) مع أخى لتجريب إحدى السيارات بعد عمل عدة إصلاحات لها، وكان الأب (ث) هو قائد السيارة وكان يقودها بتهور وسرعة ولامبالاة ولم يذعن لتحذير أخى.. ووقع المحظور إذ كانت السيارة بلا فرامل على الإطلاق، وعندما أراد الأب (ث) أن يوقفها صدم أحد العمال فسقط فاقداً الوعى ونُقل إلى الدير، وكان وحيد والديه، وأسرع الرهبان بعمل تنفس اصطناعى له..

> **.. وبعد ثلاث ساعات كان العامل قد فارق الحياة وصعدت روحه بعيداً عن مخلفات الحقد الإنسانى الموجودة فى ديرنا.. وعلمت بعد ذلك من أخى والذى أصيب بعدد من الكدمات أن الأب (ث) كان يستخف بالأمر ويضحك ويلوح بيديه وهو يقود السيارة. وحزنت على العامل كما حزن عليه جميع الرهبان، فقد كان طيباً ومطيعاً ولم يتجاوز عمره الثمانية عشر.**

فى مثل هذه الحالات يقوم الدير بإبلاغ الشرطة لعمل محضر وتسجيل الحادث، ولكن الدير ليس بالسذاجة التى تجعله يبلغ عن راهب ليس لديه رخصة قيادة فيدخل الراهب والدير فى سين وجيم، فضلاً عن إدانة راهب أمام النيابة، لذلك تم الاستعانة بالأب (ز) حيث كان يمتلك رخصة قيادة، وتم إقناعه ليقوم بتضحية من أجل أخيه الأب (ث) ومن أجل الدير وسمعة الأب الروحى، كما تمت صياغة البلاغ بصورة تحمل البراءة للراهب (ز) حيث ادّعو أن العامل هو المخطىء حيث كان يسير فى منتصف الطريق ولم يسمع آلة التنبيه كما أن به شيئاً من العبط، ونظراً لثقة الشرطة فى الدير والرهبان فلن يُسأل أحد من الرهبان أو العمال.. كما أن العمال لايعرفون مايدور فى إدارة الدير ولا يعلمون بصيغة البلاغ، ولايمكن أن يقوم راهب بالتبليغ عن الحقيقة وإلا يعتبر [illegible] للدير.. وحتى إذا أراد فكيف يبلغ عن الحقيقة وليس لدى الرهبان الصغار [illegible] وسيلة اتصال بالعالم الخارجى.. وفوق كل هذا فبلاغه لن يعيد حياة الشاب.

> **وهكذا ذهب الأب (ز) للشرطة واعترف كذباً أنه صدم عاملاً - العامل المهمل المذنب العبيط - ولو كان هناك عقاب لأوقعوه على جثة العامل!!**

أما بالنسبة لأهل العامل فهم من الصعيد كما أنهم يقدسون الرهبان ولايمكن أن يشكوا أبداً فى الدير.. لذا قام الرهبان بحمل الجثة إلى الصعيد مع عاملين من نفس البلدة وأعطى الرهبان أهل الشاب مبلغ ألفين من الجنيهات وهكذا دفن العامل ودفنت قضيته معه، وعاد الأب (ث) يصول ويجول ويمارس تكبره وتحبره ولكن الأب الروحى قام بعمل عدة رخص قيادة لبعض الرهبان

ليخص أبينا (ث) بإحداها.. ولو تم فتح الملفات لوجد أن تاريخ موت العامل فى محضر شرطة الوادى يسبق تاريخ رخصة القيادة للأب (ث) بإدارة المرور بخمسة أو ستة شهور على الأقل!

●●●

مكثت شهراً بعد عملى على البوابة لا أقوى على العمل، وأرسلوا لى لكى أساعد أبينا (د) حيث كاد أن يسقط من شدة إرهاقه فى عمله بالحظيرة، فذهبت لمساعدته وقاسمته العمل، وأتقنت الإشراف على إطعام البهائم ورفع مخلفاتها. وكانت الحظيرة فى الأيام الأولى بمثابة مصحة نفسية، والنجاح والقدرة على القيادة والإدارة أشياء كفيلة بإعادة الإتزان النفسى بالنسبة لى، ومن حسن حظى أن الراهب مدير الحظيرة - وهو طبيب بيطرى - لم يكن موجوداً، فقد كان بالقاهرة لإجراء عملية فى البروستاتا وهو مصدر قلق وصدام لكل من يعمل معه من الرهبان والعمال أيضاً، وبسبب هذا الراهب ترك العمل بالحظيرة جميع الرهبان الذين عملوا معه.

وكان بالحظيرة - كما سبق وذكرت - حوالى ألف رأس من الأبقار وستمائة رأس من الأغنام ويشرف عليها عدد من الرهبان الذين كانوا أطباء بيطريين قبل التحاقهم بالرهبنة وكان الغرض من التربية هو الاستفادة من إنتاج اللحوم والألبان أو الاستفادة فى عمل أبحاث علمية.

ولإنشاء الحظيرة قصة أحب أن أذكرها هنا، وكما رواها لى الأب الروحى: كان العرب المجاورون للدير فى موسم زراعة البطيخ ينزلون خلسة إلى أرض الدير ويستولون عليها ويقومون بزراعتها ثم يتركونها بعد بيع البطيخ. وسبب هذا قلقاً بالغاً للرهبان.. فلو وضع العرب أيديهم عليها لامتلكوها بالإضافة إلى أن الرهبان يكرهون مجاورة أحد.. لذلك نصح أصدقاء الدير وهم من كبار الأغنياء أن يقوم الرهبان بزراعة الأرض لإبعاد العرب عنها.. ويلزم للزراعة سماد بلدى.. لذلك يجب تربية (الماشية)، وقد أهدى بعضهم للدير عدة رؤوس من الجاموس والأبقار المصرية، ثم توالت الهدايا من هذا النوع.. وربما اشترى الدير بعضاً من هذه الرؤوس غير أنى اشك فى هذا، فالدير لايدفع مادام هناك مصدر للشحاذة والتسول..

وقد كنت فى الدير عام ١٩٨١، حينما أرسل الدير الراهب (أ) للتسول من اوروبا (المانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا .. إلخ) لا ليحضر إلينا بالطعام، فالطعام عندنا يكفى لإطعام قرية بأكملها، ولكن ليشحن لنا قطيعاً من الأبقار الممتازة درجة اولى لإنتاج اللحوم والألبان، ولم تكن هذه هى المرة الأولى الذى يتسول فيها الدير، ففى عام ١٩٧٩، ذهب أحد الرهبان إلى المصريين الأثرياء المقيمين فى أوروبا للتسول منهم.. وكانوا يدفعون للدير بسخاء بعد بكاء الراهب على أحواله المتردية!!

وكان للدير بسبب هذه الأنواع الممتازة من (الماشية) سمعة طيبة بين المزارع المجاورة وحتى مراكز الأبحاث فى مصر كانت لها علاقات وثيقة بالدير. وذات يوم أرسلت مزرعة خاصة مجاورة للدير طبيبها البيطرى لشراء أحد العجول (الفريزيان) ـ كسلالة ممتازة للاستفادة منها فى التلقيح ـ وكنت فى الحظيرة آنذاك، وجاء موعد البيع وكانت المفاجأة بالنسبة لى هى قيام الدير ببيع هذا العجل بالذات فقد حذرنى الأب الراهب الذى سلمنى العمل من هذا العجل بالذات، فقد كان يزن حوالى ١٢٠٠ كيلوجرام وهو عنيف للغاية فقد ينطح أى إنسان أمامه وكثيراً ماكنت أجرى من أمامه، كانت مفاجأة شديدة بالنسبة لى.. قلبى يدق بعنف، أيبيع الدير هذا العجل والذى ننتظر ذبحه للتخلص من تهوره، وحاولت أن أستجمع قوتى وأهدىء من روعى.. ربما تريده المزرعة للذبح.. لا، لايمكن، فلو كانت المزرعة تريده للذبح لأرسلت جزاراً وليس طبيباً بيطرياً، وسمعت الراهب البيطرى يعطى أوامره للعمال بتحميل العجل فوق سيارة المزرعة، إذاً النية مبيتة على بيع هذا العجل، فقلت فى نفسى لا أقل من أن يحذر الدير أصحاب المزرعة، واقتربت من الراهب البيطرى وهمست له «ألا نحذرهم من خطورة هذا العجل؟»، فاحمرت عيناه وامتلأ بالغضب وزمجر كالأسد وزجرنى باحتقار شديد «وانت مالك انت».

اتبع معى نفس سياسة الدير والقائمة على القمع والاستبداد وتحكم الكبير فى الصغير، وشعرت بالإهانة البالغة فى هذا الموقف، وسقطت فى هذه اللحظة كل شعارات الدير القائمة على المثل والقيم والمبادىء.. أحسست أن نفسى

تتحطم.. الأرض تميد تحت قدميّ، إننى تركت العالم لأسير خلف هؤلاء فى طريق الاستقامة حتى أصل إلى الحياة الأبدية فى نهاية المطاف، واكتشفت أن الطريق غير مستقيم ولايؤدى إلى الحياة الأبدية.. ياله من ضياع، وعدت من الحظيرة إلى الدير مثقل بالأفكار والأحزان.. لا أقوى على السير.. وأجر قدميّ جراً..

مر حوالى شهر ثم وقعت الواقعة «لقد نطح العجل طبيب المزرعة البيطرى وأرداه قتيلاً».. أحسست أن لوثة تجتاح عقلى والعذاب يملأ نفسى، ولم أسلم من تعذيب ضميرى «أنت مشترك فى القتل، بل أنت القاتل الحقيقى.. لو تكلمت لما قُتل الطبيب»، والغريب أننى لم أدافع عن نفسى أمام ضميرى.. انتابتنى حالة من حب تعذيب الذات.. كنت كمن يستريح لتمزيق قلبه بنصل سكين يضغط عليه بكلتا يديه ليريح نفسه من جريمة ارتكبها ولم يستطع الفرار منها.

نعم لو تكلمت لمنعت الجريمة. منذ أن نهرنى الراهب بقوله «انت مالك» أعلن عن موت ضميره فى هذه اللحظة.. فأصبح ضميرى هو المسئول ولكنى لم أفعل شيئاً.. ألم يكن فى إمكانى الصراخ وتنبيه أصحاب المزرعة وليكن بعد ذلك مايكون، فليطردنى الدير ويلقى بى فى الشارع، فالله يعلم أن ذلك أرحم بكثير من العذاب الذى أعانيه..

أهذا ماوصل إليه حالى من الضعف والخنوع والمذلة والركوع وتقبيل الأيدى والسجود تحت الأقدام؟ أليس هذا قتلاً مع سبق الإصرار والترصد؟ أليست هذه قضية قد يغفلها القانون المدنى.. ولكن أين الضمير الإنسانى والقانون الإلهى؟!

10

خطايا الأب الروحى

أشعر بالألم يغزو نفسى كلما كتبت شيئاً من هذه الاعترافات، وفى هذه المرة أكتب حدثاً تمزقت له قلوب الرهبان جميعاً. فقد تسبب هذا الحدث فى خروج أكثر من تسعة من الرهبان تاركين الدير والرهبنة.

كان المسئول عن المائدة فى ذلك الوقت راهباً صيدلياً، وبطبيعة عمله السابق تميز بالنظافة والنظام، وكان هذا الصيدلى من صعيد مصر، وبعد تخرجه عمل فى دولة أوروبية، وبعد عودته إلى مصر تمكن من فتح صيدلية خاصة به، ثم ترك المال والصيدلية وجاء ليترهبن ويعيش بيننا، وقد أشاد به من عرفوه بالصيدلية.. فهو رقيق.. قنوع.. مؤدب، يتسم وجهه بالبشاشة ويتميز بخفة الظل والروح، وكان محباً لنا جميعاً يفنى نفسه فى العمل من أجل تنظيف المائدة والمأكولات وتقديم الطعام بصورة جيدة لإخوانه الرهبان. وللأسف لم يستمر الحال هكذا فقد نشبت الخلافات بينه وبين رئيسه المباشر - رئيس الدياكونية(*) - وكان الأخير بخيلاً إلى درجة القرف، وكان كبيراً فى السن مع احتفاظه بحيوية وشباب يحسده عليها أى شاب، وتشع التقوى من عينيه ووجهه، فرأسه بيضاء ولحيته طويلة ناصعة البياض، ووجهه المستدير يتمزج فيه البياض بالحمرة، حينما تسمعه تذوب حباً لله وللرهبنة وتشتاق للتقشف والطهارة. ولكنك بعد الاحتكاك به تجد الزيف والكذب والنفاق، والقلب المملوء بالخبث والحقد والسواد.. كما جاء فى العهد القديم: «إن الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب» (ح حم ٧ : ١٦). وحدث الصدام بين الراهب الصيدلى الشاب وأبينا رئيس (الدياكونية)، فكثيراً ما عامله بقسوة وتسلط.. والراهب الصيدلى يصبر

(*) عمل رئيس الدياكونية هو الإشراف على المطبخ والمخبر والمائدة وملابس الرهبان، وبالتالى مخازن الدير

ويفوض أمره إلى الله.. ولكن إلى متى يستطيع الإنسان أن يتحمل الظلم؟ وكثيراً ما ضاقت نفس الراهب الشاب، وكثيراً ما رأيته يبكى، وكنت أشعر تجاهه بالانسحاق، ففرق كبير بين بكاء الرجل وبكاء المرأة، فبكاء الرجل يعطى انطباعاً بالاضطهاد والظلم، وكنا نحاول التخفيف عنه دون جدوى، وصلينا كثيراً من أجله لكى يرفع الله عنه هذه البلوى..

وكان الأب الروحى يترك الدير من حين إلى آخر، لعدة شهور تمتد أحياناً إلى سنة أو يزيد.. لا ليطلب الخلوة مع الله ولكن هروباً من الدير ومشاكله، وكان يردد بلا خجل «أن الدير سفينة تغرق»، وكنت أقول للرهبان آنذاك من السبب فى غرق السفينة؟! أليس ربانها؟ فكيف تخونه الشجاعة ويتركها تغرق؟! كيف يعلمنا الأب الروحى أن نضحى بدمائنا فى سبيل الدير، وهو لايضحى من أجلنا؟!

وبعد عودة الأب الروحى هذه المرة.. بدأ يضرب على رؤوسنا وأيدينا، فجرد الرهبان من سياراتهم التى يستخدمونها فى العمل، وجرد آخرين من الغرف المنفردة التى يعيشون فيها، وكل يوم يعلق إعلاناً عن ممنوعات وأوامر وتهديد ووعيد. ووجد رئيس الدياكونية الفرصة سانحة أمامه واللقمة ـ الراهب الشاب ـ سائغة فى فمه، فقام باتهامه لدى الأب الروحى بأبشع تهمة فى حياة الرهبنة وهى عدم الطاعة(*)، ولم تسمح أعصاب الأب الروحى الثائرة أن تأخذ قراراً فورياً بخصوص الراهب الشاب..

فدخل يصلى ويستلهم الحل من الله، فقال له الروح القدس: «أن يطرد الراهب فى الحال»، وعاد وصلى مرة أخرى، فقال له الروح القدس مرة أخرى: «إذا بكى الراهب فأعطوه فرصة أخرى، أما إذا لم يبك فاطردوه فى الحال»!! ولست أدرى لماذا صلى مرة أخرى مادام الوحى قام بإلهامه فى المرة الأولى؟! أيكون الشك فى كلام الله ووحيه؟! وسواء بكى الراهب أم لا فقد تم طرده فى نفس اليوم!!

وهكذا رأى الرهبان أمنهم واستقرارهم من الأمور المشكوك فيها وخاصة أن

(*) تقوم الرهبنة الحقيقية على ثلاثة محاور أو قيّم رئيسية وهى: (الطاعة ـ العفة ـ الفقر).

الراهب المطرود يتمتع بدماثة الخلق، ومادام هناك تعسف وطرد ولو فى حالة واحدة فما الذى يمنع أن يُطرد أى راهب لأتفه الأسباب مستقبلاً؟ وشعر كل راهب بالظلم يقع على نفسه هو وخاصة مع تسلط وكبرياء وعجرفة الأب الروحى على القطيع المسكين والذى أسلم نفسه بلا أى قيد أو شرط.. بل أوجب على نفسه الطاعة حتى الموت. وذهب كل راهب إلى أب اعترافه ليحصل ولو على قليل من السكينة والراحة النفسية..

وكان أن حدث انقسام فى الدير، فالأغلبية العظمى من الرهبان - الصغار بالطبع - ثارت ضد الوضع الظالم، والأقلية - الرؤوساء - وقفت فى صف الأب الروحى لارتباط مصالحها به.

وحدث أثناء عودتى من العمل فى أحد الأيام أننى رأيت أحد الرهبان الأصدقاء وهو فى حالة انهيار تام.. وعندما سألته عن حالته هذه أخبرنى قائلاً:

«إن رئيس (الدياكونية) أراد تقبيل الراهب الشاب - المطرود - قبل أن يغادر الدير فما كان من الراهب الشاب إلا أن قال له: «ابتعد عنى فهذه قبلة يهوذا»(*).

وضعنى الدير بهذا الحادث فى تمزق نفسى عنيف، فإما أن أتذلل وأخضع وأركع تحت الأقدام، وإما أن أثور وأتكلم وأعلن رأيى، ولكن إعلان الرأى ثمنه الطرد، ولكن كيف أعلن عن رأيى؟ وكيف أصل إلى الأب الروحى المخدوع وأخبره بالحقيقة؟ وقد سبق وكتب إعلاناً يمنع جميع الرهبان من كتابة التقارير له سواء عن سير العمل، أو عن الحالة الروحية.. ومنع أيضاً الاتصال به هاتفياً، أو طلب مقابلته شخصياً، أو حتى السلام عليه وتقبيل يديه أثناء مروره فى الطريق!

ولم نكن نرى الأب الروحى إلا كل يوم جمعة حيث يقوم بوعظنا بعد انتهاء العمل، وهو متحدث لبق وذكى ويمتلك شخصية طاغية يستطيع من خلالها النفاذ إلى أغوار أى شخص يتحدث معه، وكانت ساعات العظة الواحدة تمتد إلى ست ساعات متواصلة.. وتمتلىء موعظته بالحديث عن القيم والمبادىء وتعاليم الله والتى يجب أن نراعاها فى جميع تصرفاتنا!!

(*) قُبلة يهوذا: رمز للخيانة فى المسيحية، فقبل أن يُسلّم يهوذا المسيح للصلب أراد أن يقبّله، فقال له السيد المسيح: «أبقبلة تُسلّم ابن الإنسان»

فى الجمعة التالية للحادث السابق مباشرة، أعددت له خطاباً، وبعد كلمات التبجيل والتفخيم فى ذاته القدسية.. كتبت عدة فقرات أذكّره فيها بمؤلفاته الروحية وعظاته الإلهية، واحتوى خطابى النقاط التالية:

أولاً: ذكّرته أن حكمه بطرد الراهب الشاب مبنى على وشاية الأب رئيس «الدياكونية» ولم يستمع مطلقاً إلى الطرف الآخر.

ثانياً: بينت له أن الراهب الشاب قد تعرض لظلم بيّن من جانب رئيس الدياكونية.

ثالثاً: وضحت له أن اتخاذ قرار خطير مثل الطرد لابد أن يأخذ فيه رأى الرهبان، وحتى لو وافق ٤٠٪ منهم على القرار يتم تنفيذه.

رابعاً: تحدثت عن الراهب المطرود ووصفت أخلاقه الدمثة، وطلبت فى النهاية أن يرجعه الدير ويقوم الجميع بالاعتذار له.

وأثناء العظة أعطيت الخطاب للراهب الجالس بجوارى وقام بدوره بإعطائه لمن يليه وهكذا، حتى وصل إلى الأب المسئول عن السيارات فقام بفتح الخطاب وبدأ فى قراءته، فقمت على الفور واتجهت ناحية هذا الأب وكان قريباً من الأب الروحى، فصرخ الأب الروحى: «فيه إيه؟»(*). وبسرعة خطفت الخطاب من يد هذا الأب وتقدمت به إلى الأب الروحى والذى كانت عيناه تقذفان بالشرر نحوى.. وكم كانت عيناه قاسيتين، وأحسست أن المسألة حياة أو موت.. بل أن مصيرى يتحدد فى تلك اللحظات، لم يكن لحياتى أى ثمن عندى فى تلك اللحظة، فأنا أمام المستبد الطاغى ولم أعد أستطيع الحياة بمذلة وامتهان.

وأخيراً وضعت الخطاب أمامه وقلت له: «هذه الورقة مهمة جداً لابد أن تقرأها»، فصرخ بصوت هائج: «انت هتعطلنا.. كل الناس دى عندها شغل». والعجيب أننى كنت أقف أمامه.. وهو يتحدث عن «الحب» ولعدة لحظات تبادلنا نظرات مملوءة بالكراهية والرغبة فى الانتقام، ثم أدرت له ظهرى وذهبت إلى مكانى، وبدأ هو ينظر إلى الكلام المكتوب فى الورقة ثم ينظر إلىّ بعد ذلك شذراً،

(*) كان ممنوعاً علينا أثناء عظات الأب الروحى الحركة والكلام وحتى التثاؤب.

وبعد قراءته للخطاب قام بوضعه فى جيب البالطو الأسود الذى يرتديه. وبعد انتهاء العظة التف حولى الرهبان وحاولوا أن يعرفوا محتوى خطابى ولكنى أمسكت عن الكلام، وبعض الرهبان استنتج بنفسه ما كتبته فكان يسلم علىّ ويهز ذراعى بقوة فأحس بهذه القوة تسرى من ذراعى إلى قلبى فتملأنى بالأمل.. فهناك قلوب تصرخ من الظلم ولو بأصوات مكتومة.

مر يومان ولم أتلق رداً على خطابى، وفى اليوم الثالث قابلنى شيخ (راهب مسن) وقال لى: «سوف أبلغك بعد الظهر رد الأب الروحى على خطابك فى المكان الفلانى»، وكان الرد شفاهياً(*)، وفى الميعاد والمكان المحدد التقيت بالشيخ فقال لى:

«إن أبانا يبلغك أنك صنعت ضجة أثناء العظة ولولا انك مطيع لطردك من الدير.

ثانياً: ممنوع منعاً باتاً إبداء الرأى، وإذا أردت التعبير عن رأيك فاخرج من الدير.

ثالثاً: لسنا فى مجلس الشعب حتى تتم مشاورة الرهبان فى قرارات الأب الروحى، فلو أن جميع الرهبان رأوا شيئاً ورأى الأب الروحى خلافه فسوف ينفذ الأب الروحى رأيه.

أخيراً: إذا صممت على رأيك فاخرج من الدير، ثم كيف تقول أن يحضر الراهب المطرود ويقوم كل الدير بالاعتذار إليه؟».

هكذا كان الرد قاسياً ورادعاً، وهكذا كان التسلط الذى يجعل كلمة الأب الروحى نافذة على المجمع كله (رهبان الدير).

وعلى أثر طرد الراهب الشاب ترك الدير ثلاثة رهبان، ولم يتركوه للالتحاق بدير آخر.. بل نزلوا إلى العالم(**)، وتبعهم راهب رابع وخامس وسادس، أما أنا فأظهرت الإذعان لا خوفاً من أحد بل لأعطى نفسى فرصة تقرير مصيرى بدلاً من أن يقرروه هم، فإن أردت البقاء بقيت وإلا أرحل من تلقاء نفسى.

(*) فى الأمور المهمة كان الأب الروحى لا يكتب بل يرسل الرد شفاهياً وفى أماكن بعيدة عن مساكن الرهبان، وذلك حتى لايسمع أحد ردود الأب الروحى الشفاهية.

(**) يُسمى المجتمع بالعالم، ويسمى من فيه بالعلمانيين وفقاً لمصطلحات الرهبان.

لم يحتمل الأب الروحى ترك الرهبان للدير، ولم يقدر على الاحتمال أكثر من شهرين فعاد إلى خلوته.. بل نزهته على شاطىء البحر، وكان يرافقه أحد الرهبان، وبعد حوالى ثمانية شهور عاد هذا الراهب ـ المرافق للأب الروحى - إلى الدير وهو فى أقصى حالات الاكتئاب النفسى، فأرسلوا إلى الأب الروحى راهباً آخر.. وكان صيدلياً ونشيطاً وذكياً، وبالرغم من صغره استطاع أن يكوّن صداقة شخصية مع الأب الروحى، وهناك أخبر الراهب الصغير الأب الروحى أن سبب الأحوال المتردية فى الدير وسخط الرهبان هو طرد الراهب الشاب والذى كان مظلوماً، فقال الأب الروحى:

«لقد ضحكوا على ذقنى البيضاء.. لقد خدعونى».. أى انه خُدع واتخذ قراراً خاطئاً، فأين الوحى وأين كلام روح القدس؟ أوصلت عقولنا نحن المتعلمين إلى درجة أن نغمض أعيننا ونسير وراء إنسان يدّعى أن الله يكلمه ويوحى إليه ثم يحدث عكس ذلك؟!

11

البقرة المصرية والجامعة الأمريكية

شىء جميل أن تغرس فى النشء حب الوطن وواجب الدفاع عنه والتضحية فى سبيله بالحياة، لا لكى نجنى ثمار ذلك فى المستقبل فيدافع الشباب عن الوطن ويظهروا الولاء له فحسب.. ولكن لكى يكون النشء سليم نفسياً فيعرف معنى حب الغير والرجولة والتضحية والفداء، وأن حياة الوطن والآخرين أغلى من حياته، ويعرف أيضاً معنى الشهامة والأمانة.. فآماله بتقدم الوطن وازدهاره تربيه على التفاؤل والتمسك بالحياة، هكذا ينشأ جيل قوى شجاع لا يخاف من الموت، سليماً نفسياً.. وهكذا نشأت أنا وتعلمت على يد الأستاذ «عليان» الفلسطينى، وكم كانت تلذ لى قصة جواد حسنى الذى كتب بدمه «نموت نموت وتحيا دولة فلسطين»، وذات العقال الفارسة المحاربة بالسيف، وميسرة الفلام المقاتل، وعيسى الفواص الذى كان يحمل الرسائل تحت الماء، لكم عشقت نفسى الأبطال والزعماء، ولكم قدست العلماء وقدرتهم.

وكنت كلما لمحت الوطنية فى الأب الروحى ارتفعت نفسى فوق السحاب واتسعت رئتاى لأملأهما بشهيق الشجاعة واستمرارية الحياة، وإنى مازلت أعيش ومازال علىّ واجب هو تحقيق الكرامة والرفاهية لوطنى، وهاهو يقدم لنا مشروعاً جديداً «تحسين البقرة المصرية». وتقوم فكرته على التهجين، فالذكر فريزيان والأنثى بقرة مصرية، وتؤخذ العجول المولودة من هذا التهجين (الجيل الأول) وتلقح أيضاً بفريزيان أصيل.. وهكذا حتى الجيل السابع الذى سيحمل مواصفات إن لم تكن كصفات اللأب فهى قريبة جداً جداً منه. والفرق بين الفريزيان والبلدى هائل، وعلى سبيل المثال ذكر الفريزيان يصل وزنه إلى مافوق ١٣٠٠ كيلو (طن وثلاثمائة من الكيلوات) وأنثاه من ٨٠٠ ـ ٩٠٠ كيلو، أما الذكر البلدى فلا يصل إلى ٩٠٠ كيلو وأنثاه لا تزيد على ٦٠٠ كيلو، وأنثى الفريزيان

تحلب مايقرب من ٢٥ كيلو جرام لبن يومياً والبقرة البلدى لا تحلب أكثر من ٤ كيلو جرامات يومياً. كما من فوائد التهجين أن الأجنة تحمل المواصفات الوراثية للتكيف مع البيئة من الأم.

وانتخبت بقرات مصرية وذكور فريزيان (استجلبوها من ألمانيا)، وولدت الجيل الأول، والجيل الأول ولد الثانى.. حتى وصل مشروع البحث إلى الجيل الرابع وفى بطونها الجيل الخامس.

ولست أدرى ما علاقتنا بالجامعة الأمريكية وكيف عرفت موضوع البحث وهو سر من أسرار الدير ربما لا يعلمه مركز البحوث المصرى الذى كان صديقنا وقت ذاك؟!

وماهى إلا أيام من تردد مندوبين من الجامعة الأمريكية على الدير إلا ونسمع أن الأب الروحى باع البحث ومشروعه للجامعة الأمريكية.. حُملت أبقار الجيل الرابع الحوامل، والأوراق وكل مايخص البحث وكانت فاجعة بالنسبة لى وكان حزن الرهبان عظيما.

أيأخذون البحث ونحن على وشك إتمامه؟ أيأخذونه (جاهزاً)؟ ألم نكن نحن أصحاب الفكرة وأصحاب العمل حتى كاد يكتمل؟ أيشترون عرقنا وأملنا بالنقود وهم لم يتعبوا فيه ولا ترجوه ولا ترقبوه مثلنا؟ وضعنا آمالنا عليه، ياحزنى ويالحسرتى، إننا لا نرغب فى النقود إطلاقاً، إن مكسبنا المعنوى أثمن بكثير من المادة، يكفى أن بعد عدة سنوات لن تطول (إن نجحت مصر فى تطبيقه) سوف يتوفر لدينا اللبن والجبن والسمن واللحم، واللحم أهم ما يؤكل وهو المؤثر الأول فى اقتصاد المنزل والدولة أيضاً، وسوف نتحول من بلد نستورد اللحوم إلى بلد يصدر اللحوم (على المدى البعيد).

ومعروف عن الأب انه لايفرط فى أى حق من حقوق الدير، ولا فى شبر أرض، تشهد عليه القضايا والمحاكم التى انتزع بها الأرض من أيدى العرب المجاورين له (ووقفته أمام الكفراوى الذى اراد ضم أرض تخص الدير إلى مدينة السادات.

لماذا باع أفكاره وتعبه؟ فقد كان متابعاً للمشروع بنفسه، أيكون الثمن المدفوع باهظاً؟ وهل الثمن الباهظ يغير ضمير الروحانى المتسامى عن المادة والنقود والمتمسك بالمبادىء والقيم.

على أن كلمة باهظ تناسب الفقراء ولا تناسب الجامعة الأمريكية، فالدولارات لديهم كأوراق الشجر، وهى تخدم أهدافهم السيلمة وغير السليمة.

وإن لم نخدم نحن أبناء البلد بلدنا فهل ننتظر أن الغريب يخدمها لنا، لايمن.. لايمكن.. فقد قالوا إن الجامعة الأمريكية ستكمل البحث، تكمله لصالح من وقد صار ملكاً لها (وهى حرة) تكمله أو لا تكلمه؟

وماذا سيعود عليها إذا أكملته وقدمته للحكومة المصرية.. التصفيق الحار ومزيد من الاحترام؟!

بل السؤال الحقيقى هو: ماذا سيعود عليها إن لم يكتمل البحث والمشروع؟ أيعود عليها المال الذى دفعته؟

إن ما اكتبه يمس السياسة على الرغم من كونى غير سياسى ولكن عقلى يعمل.
انا أعلم أن هناك حرية صحافة، ولكن هذه الحرية لا تخرج عن إطار الأدب واللياقة، ولست أدرى مدى أدب ولياقة ما أكتبه الآن ولكنى سأعرف بعد نشره.

ومضت المدة المحددة لاستكمال البحث ولم نسمع أن الجامعة الأمريكية أتمت البحث ولا قدمته للجهة المصرية المختصة حتى تهكم بعض الرهبان وقالوا: «إن الأمريكان ذبحوا الأبقار وقاموا بشى لحمها وأكلوها فى الأمسيات القمرية».

كأن هم الجامعة الأمريكية هو إخفاء البحث حتى ولو دفعوا فيه مادفعوا.

وقد اتفقوا مع الأب الروحى على عدم تحسين البقرة المصرية وعدم رفع المستوى الاقتصادى واتفقوا أيضاً على تحسين الكم المودع لحساب الدير بالبنك ورفع مستوى فوائده.

وحينما سُئل الأب الروحى عن سبب بيعه للمشروع قال بكل (....) إن هذا

المشروع خطير على روحانية الرهبان (أى سيصابون بالغرور أو سينصرفون عن العبادة بالتركيز فيه).

الآن عرف روحانية الرهبان، وأين كانت أثناء إقامة كل هذه المشاريع؟ الآن يذكر ويتذكر أن هدف الرهبان روحى وليس مادى، وأين هذا الهدف من بقية المشاريع؟ نعم ليس مادى فقد وضع المادة فى البنك ولم يلمسها بأحد أصابعه.

هذا المشروع بيع بثمن ضخم، لذلك لايتناسب وروحانية الرهبان، ولو تم بيع كل المشاريع التى لدينا بهذا الثمن لتم التذكر التام لهدفنا الروحى الذى خرجنا من العالم لأجله ولكن بعد أن يكون قد كدسنا أكواماً فى البنوك. سوف نتذكر هدفنا الروحى بعد أن نطمئن على مستقبلنا المادى، وأن فوائد هذه الكميات تكفى لعيش «البغددة» ولكن (البغددة لمن ياحسرة)، إن الرهبان مثلى ممنوع عليهم «البغددة» وإلا سيدخلون جهنم وبئس المصير، أما الكبار لا غبار عليهم و«البغددة» نصيبهم وحقهم. إنها معادلة صعبة وغير متزنة، قوم كُتب عليهم الشقاء هنا وفى العالم الآخر وقوم كتبت لهم «البغددة» هنا وهناك.

ياللحرباء المخضرمة، إذا أراد أن يقنعك بترك الصلاة وترك العمل الروحى قال إن الأمين فى القليل أمين فى الكثير، أى أن الأمين فى العمل المادى أمين فى العمل الروحى.. إلخ. وإن أراد أن يقنعك بالعكس قال إن ذلك يؤثر على روحانية الرهبان، كما أن هدفنا ليس الزرع والقلع وإنما هدفنا العبادة. وهو على علم تام بأن أكثر من ٧٨٪ من الرهبان قد انفصلوا بواسطة مشروعاته وأعماله وأفكاره عن الصلاة والعبادة وصار عملهم هو كل عبادتهم فلا حضور للتسبيحة ولا صلاة «الغروب» ولا قراءة فى إنجيل أو كتب روحية. بل صدقنى إن منهم من ليس له دراية بالإنجيل وليس له معرفة روحية.

«إننا نقوم بواجبنا الوطنى تجاه مصر بهذا المشروع».. كان هذا أحد شعاراته من قبل.. شعار جميل، وكان سيبقى جميلاً ومشروعاً ولكن بيع، وما أكثر الشعارات وأعلى الهتافات وأقل الضمائر التى تخلص للشعارات والأمانة التى تُعلّى الهتافات. ولكن التضاد واضح وفاضح، يفكر وينتج مشروعاً ويصبغه فى شعار والحنجرة تهتف به وضمير المفكر عينه يتنكر للشعار ويبيعه واليد تقبض الثمن.. نعم اثنان فى واحد، هل النتيجة واحد؟ لايمكن ٢ × ١ ≠ ١.

وبحسب المنطق الرياضى، القضية إذا كانت أفكار المؤلف تؤدى إلى سلوكه سلوكاً معيناً، إذا كان فقط نفس الأفكار (متفقة)، وعكس ذلك السلوك قضية خاطئة (متناقضة)

(أ ← ب) ↔ (أ ∩ ≈ ب)

أ	ب	أ ← ب	≈ ب	أ ∩ ≈ ب	(أ ← ب) ↔ (أ ∩ ≈ ب)
ص	ص	ص	خ	خ	خ
ص	خ	خ	ص	ص	خ
خ	ص	ص	خ	خ	خ
خ	خ	ص	ص	خ	خ

واضح من العمود الأخير أن جميع قيم الصدق (خ)، أى النتيجة خاطئة.

ترى كم دفعت له الجامعة الأمريكية وهى تملك الدولارات التى يعزها ويسيل لها لعابه، وقد حدثنا هو عن ذلك فقال: «إن أول حصيلة لثمن البطيخ فى عام ١٩٧٨ وضعتها فى البنك بالدولارات لأن قيمة الجنيه المصرى فى هبوط، أما الدولار فحافظ لقيمته، وقد تم تغيير الجنيهات بالدولارات ومن كثرتها ـ وكان وقت العمل أوشك على الانتهاء ـ أغلق الموظفين البنك وجلسوا يعدون النقود على الأرض».. هذا ما سمعته أذناى منه بالحرف الواحد.

●●●

• أمريكى فى الدير

كانت الدراسات اللاهوتية تجرى على قدم وساق فى الدير وتعامل كالدراسات العلمية تماماً، ومن ثم كان من اللازم تعلم اللغة الألمانية لأن الألمان احتفظوا بمخطوطات الأديرة، خاصة ديرنا، ونقلوها إلى لغتهم بعد سرقتها من الرهبان الجهلاء. وقديماً كانت مكتبة الدير من أضخم المكتبات، وكان الدير مركز إشعاع علمى كبير، ربما يأتى مباشرة بعد مكتبة ومدرسة الإسكندرية الشهيرتين.

وقد وصل جهل الرهبان إلى أنهم كانوا يحرقون المخطوطات لاستغلال نارها فى عمل (الخبز)، فكان الألمان ينقذونها من إيديهم بقطعة نقود او بلفافة تبغ أو بزجاجة خمر! وقد صرح لى الأب الروحى ان النساء كن يأتين إلى الرهبان فى الخفاء وقد افسدن الرهبان والرهبنة.

وكم مرت الرهبنة بعصور منها المنير ومنها المظلم، أما الآن فهى تمر بعصر التزييف والرياء، فلها شكل النور وجوهرها مظلم. وكان على الرهبان تعلم اللغة اليونانية، فقد كتب العهد الجديد (الإنجيل) بها وخاصة رسائل بولس الرسول، والترجمة الحالية الموجودة بين أيدينا ليست بدقة الإنجيل المكتوب باليونانية. وكان يحضر إلى الدير مدرس من بلچيكا ليعلمنا الفرنسية. كما حضر إلى الدير القنصل الإسرائيلى ليعلمنا اللغة العبرية وهى لغة العهد القديم (التوراة)، وفى فترة تالية مُنع القنصل الإسرائيلى من دخول الدير لأسباب سياسية. وكانت الجامعة الأمريكية ترسل إلينا مدرساً ليعلمنا الإنجليزية وكان شاباً طويلاً جميل الطلعة وكان رقيقاً وخجولاً بصورة تفوق البنات وفى الحقيقة لم نر أخلاقاً وكرماً أكثر مما رأينا فى هذا الشاب الأمريكي والذى انبهر بالدير والرهبان والرهبة وكان على علاقة طيبة بكل طلابه وأنا منهم وكان متديناً وتردد على الدير لمدة مرتين فى الأسبوع، وكان يسعى للحصول على درجة الماچستير فى طرق التدريس، وبعد حوالى عام ونصف العام من التردد على الدير قرر "W.D" أن يترهبن فى الدير، وكانت فرحتنا به عظيمة. أما فرحة الأب الروحى به فقد

فاقت فرحتنا، فمن المعروف أن الأنبا (باخونيوس) مؤسسة الرهبنة فى الصعيد كان لديه رهبان من الروم، ويُحكى أن أحدهم ذهب ليعترف إليه وكان بينهما مترجم فرفض المعترف استكمال اعترافه فأُلهم الأب معرفة اللغة الرومية من الله وصار لايحتاج إلى مترجم ووصل عدد الرهبان لديه إلى حوالى سبعة آلاف راهب.

وطمع الأب الروحى فى رهبنة الشاب الأمريكى ليصل إلى الشهرة والمقارنة مع مثله الأعلى الأنبا (باخونيوس). ولم يغير الشاب جنسيته، ولست أدرى إن كانت السلطات المصرية على علم برهبنته أم لا؟ غير أنى أتذكر جيداً أن رؤساءه فى الجامعة الأمريكية عارضوا هذا الموضوع بشدة.. ومكث المسكين فى الدير لمدة عامين يعانى فيهما الكبت والحرمان والقوانين الصارمة حتى انهار وترك الرهبنة وترك مصر كلها وعمله بالجامعة الأمريكية وعاد إلى أمريكا بعد أن قال قولته الشهيرة:

«إن الدير يشبه فاترينات العرض، جميلة من الخارج.. أما جوهرها فمملوء بالقذارة».

وكانت لطمة قوية للأب الروحى أفاقته من حلم رهبنة الأجانب.

12

الراهبة «هـ»

نزلت إلى الخدمة بضميرى الحى الملتزم، فكنت أشعر أننى وحيد، وكنت أخشى البنات وأحادثهن بصعوبة أحياناً، وإذا طلبت إحداهن مقابلتى كنت أرفض. كنت أتشدد على نفسى وأراعى الله فى تصرفاتى، فالراهب المتسيب لو أغلقت عليه أبواب الدنيا كلها سيجد السبيل إلى الخطيئة.

وخاصة أننى سمعت قصة أحد الرهبان المتوحدين والذى عشق امرأة فحملت منه وولدت.

إننا كرهبان نشتاق إلى البنات بطبيعتنا ولكن ويل لمن يفرط ولو قليلاً ويقوم بالانجذاب لإحدى الفتيات، فالعلاقة العاطفية تشبه النار التى تسرى وتأكل الحطب الجاف.

أما بالنسبة للنساء والفتيات بصفة خاصة فهن يتحرقن شوقاً للراهب ويحببن أن يقمن بإعطائه أى شىء، وأول هذه الأشياء هو جسدهن.. وهن يفعلن ذلك فى سبيل الخير!!

ولهذا حرصت ببقايا الإرادة التى دمرها الدير أن أتجنب مثل هذه العلاقات ليظل ثوبى نظيفاً أمام الله وأمام نفسى وأمام الناس. ولكننى أعترف أننى لم أنجح دائماً فى تعففى هذا..

وأمضيت فى الخدمة خمسة شهور وحالتى النفسية لم تتحسن. فطلبت من الله أن ينهى خدمتى، وفى اليوم الثانى مباشرة استدعانى المطران وأرسلنى بسيارته إلى الدير مع خطاب لقداسة البابا.

وكانت عودتى للحياة فى الدير الثانى بمثابة التعلق بخيوط العنكبوت الواهية. وعلى قدر مافى الدير الأول من ضبط والتزام ونظام.. على قدر مافى

الثـانى من إهمـال وتسـيب وفـوضى.. وبينمـا لا تدخل الصـحـف الدير الأول إذا بأسقف الثانى يشكو فى أحد اجتماعاته الخاصة بالرهبان من أن بعض الرهبان لديهم تليفزيونات فى غرفهم، وبينما لا يسمح لراهب بدق مسمار فى غرفته بالدير الأول، إذ برهبان الدير الثانى يقومون ببناء فيلا بأكملها مكيفة ومجهزة بكل ما يتصوره العقل من كماليات، ورهبان الدير الأول لا يتعاملون ولا يقابلون الضـيـوف ولا يحـصلون على مليم واحـد، أمـا رهبـان الدير الثـانى فـيـوطدون علاقاتهم مع من يشاءون ولاسيما الأغنياء ويحصلون على مبالغ طائلة ويملكون السيارات الفاخرة، ومن كثرة الشيكولاتة فى الدير الثانى أطلق عليه رهبان الدير الأول «دير الشيكولاتة».

وبينما وصلت ساعات عملى فى الدير الأول إلى ثمانى عشرة ساعة، إذ بى فى الدير الثانى أعانى من الفراغ الممل وأطلب عملاً من الأسقف فيجيبنى حينما يأتى البابا.. ويأتى قداسة البابا ولا تتاح للأسقف فرصة ليطلب منه عملاً لى.. وبقـيت عـاطلاً لعـدة شـهـور أخـرى، ونظراً لضـيـاع الاشـتـيـاق لله فلم أسـتطع الاستفادة من الوجود فى (القلاية) الغرفة.. بل كان الخروج منها يسبب لى الألم النفسى الشديد. فلا يوجد صديق واحد لى هنا، والرهبان ينشغلون بأمورهم، فمنهم من يسعى لمعرفة أخبار الكهنة ومنهم من يريد ترسيمه كاهناً، وآخر ينشغل بالدسائس والمؤامرات ليتقرب للأسقف والبابا ليجد فرصة فى الشهرة والوصول لأعلى المناصب واكتناز المال، وآخر يعشق مقابلة السيدات وإقامة علاقة معهن، ومنهم من يكذب وينافق ويؤلف كتباً روحية لا يطبق منها فى حياته حرفاً واحداً.

كـان للرهبـان فـى الدير الأول شكل وطابع وهدف ولغـة واحـدة، وكـادوا أن يكونون متحدين فكرياً، أما رهبان الدير الثانى فمجموعة تختلف فى أذواقها وأمـزجـتـهـا وأفكارها، ولولا القـسـوة والتـعنت فى الأول لصـار أفـضل الأديرة، والراهب الذى اعتاد الحياة فيه لا يستطيع الحياة فى أى دير آخر، أما الثانى فمـا هو إلا كسوق الأربعـاء فى بلدتنا. ورهبـانه مـا هم إلا مـجـمـوعـة من التـجـار يبيعون ويشترون أى شىء.

●●●

لم أفكر طوال حياتى فى المدنية فى رؤية الراهبات، أو زيارة أحد أديرتهن، ففى شبابى كنت أحب المرأة ويثيرنى جمالها حتى ولو كانت راهبة زاهدة فى الرجال، وأذكر أننى ذات مرة رأيت راهبات أجنبيات فى إحدى مستشفيات القاهرة وكن على درجة عالية من الجمال، وفى طفولتى كنا نلعب الكرة بجوار مدرسة الراهبات، وكانت أصواتنا تزعجهن، وذات مرة سقطت الكرة فوق مبنى المدرسة، وطرق أحد الزملاء باب المبنى، وانتظرت بعيداً لأرى الراهبة أثناء ردها على زميلى، وخرجت راهبة مصرية وأمطرتنا بوابل من الشتائم والسباب والكلام القبيح، وانتابتنى حالة من الذهول، فلم أكن أتوقع أن يحدث هذا، فالراهبات فى دهنى الصغير آنذاك يعبرن تمام التعبير عن الصورة الوردية للملائكة والمحفورة فى ذهن أى طفل صغير.

ولاحظت بعد ذلك أثناء وجودى فى الكاتدرائية تردد راهبة على الكاتدرائية، ولم أهتم بالأمر.. وفى إحدى زياراتها نادتنى وقامت بمصافحتى قائلة: «أنت من دير (أبو مقار) وقد جلست مع البابا أليس كذلك؟»، ورددت عليها قائلاً: «بلى ولكن كيف عرفت كل ذلك، وأنا لا أعرف حتى مجرد اسمك؟». قالت: «سوف أخبرك»، وفى هذه اللحظة دخل الأسقف الوكيل إلى الصالة ورآنى معها، فتغيرت ملامحها وارتبكت قائلة: «سوف أراك فى القاعة»، ومر ذلك اليوم ولم أتمكن من رؤيتها.

ولكن صورتها لم تفارق خيالى، كل أحاسيسى تدفعنى إليها، أيكون الحرمان الطويل من المرأة بعطفها وحنانها وأنوثتها هو السبب؟ هل الدافع هو حب الاستطلاع أم اشتراكها معى فى نفس الزى والهدف والطريق؟ وربما تكون فى مأساة وتريد من تبوح له بآلامها ولكنها انزعجت حينما رأت الأسقف الوكيل وربما يرفع للبابا تقريراً عن وقوفنا معاً، والراهب لايملك إلا سمعته، إذ مجرد وقوفى معها سيجلب لى ولها المشاكل، ولكنها مسكينة ومظهرها ينم عن طيبة بالغة، وكان ما يزعجنى أن أقابلها بعد ذلك فى القاعة فهى تعج بالناس من مختلف الاتجاهات والطبقات والوظائف بالإضافة إلى الكهنة، فكيف أجلس معها أمام كل هؤلاء وأنا راهب وهى راهبة.. وسوف يسترعى كلامنا معاً انتباه الجميع؟ وكيف أجرؤ على ذلك وأنا أخاف أن أتطلع فى وجه أية امرأة؟

ودخلت القاعة وبدأت أمر ببصرى على الجالسين ولمحتها ولكنى تظاهرت بعدم رؤيتها.. وأخيراً غضضت البصر وانطلقت فى سبيلى علها تلحق بى أو تناديني، وبالفعل لحقت بى ونادتنى باسمى، ثم دخلت إلى القاعة ودخلت معها، وجلسنا فى ركن بعيد وابتدرتنى قائلة: «مشكلتى تتحل لو قابلت قداسة البابا وعرضتها عليه، فإننى أريد أن يعيدنى إلى ديرى، وإن لم يكن ممكناً ينقلنى إلى دير آخر.. كل أملى أن أعيش فى دير لأننى مشردة فى شوارع القاهرة منذ عدة شهور»، وتنهدت وصمتت، واحترمت صمتها وخفت أن أسألها عن سبب خروجها من الدير لكى لا أحرجها بالكلام في شيء لاتريده، وهنا دخل الأسقف الوكيل ورمقنى بنظرة قاسية، وانزعجت هى لرؤيته وقالت لى مسرعة: «سنتقابل غداً»، وانصرفنا، ونسيت نظرة الأسقف الوكيل لأننى كنت فى شغل وتشوق لمعرفة مشكلتها.

وعرفت بعد ذلك حكايتها، كانت (هـ) جميلة الوجه، وعندما أتمت الخامسة عشر من العمر التحقت بالرهبنة، وكانت من الشخصيات الرومانسية والتى تنساق دائماً وراء عواطفها وتنحى العقل كثيراً فى علاقاتها بالآخرين وقضت بالرهبنة ٢٤ عاماً.. ولم تحتمل أعصابها ولا طبيعتها العاطفية ما يحدث داخل الدير. وذات يوم أرادت الاعتراف أمام أحد الكهنة والذى يزور دير الراهبات من حين لآخر لأخذ اعترافاتهن، ونظراً لأن الراهبة (هـ) كانت فى خلاف دائم مع الأم الرئيسة(*) وخاصة أن الأخيرة كانت تريد أن تعترف الراهبة (هـ) لديها، وكثيراً ما اشتكتها الأم الرئيسة لأسقف الدير ـ فلكل دير راهبات أسقف من الرجال ـ وهو أسقف شاب ويسمع للأم الرئيسة وليس لديه شخصية أمامها، وعندما أرادت الراهبة (هـ) أن تعترف بمشاكلها للكاهن ـ كاهن الاعتراف ـ رفضت الأم الرئيسة وصممت على أن تتلقى اعترافاتها هى بنفسها.. وعندما رفضت الراهبة (هـ) قررت الأم طردها من الدير، وأمرت سائق الدير بتجهيز السيارة..

(*) أقول الآن بضمير يملؤه الارتياح انه لاوجود حقيقى للأب الروحي او الأم الروحية. وكلهامسميات اخترعتها الرهبنة ولا تعبر إلا عن الكذب والتمثيل وخداع البسطاء من الناس.

وربطت الراهبات الصغيرات الراهبة (هـ) وقمن بحملها عنوة إلى خارج الدير وهى تصرخ: «لا اريد الخروج من الدير، اريد البقاء»، وكانت تقاوم بكل جهدها، فأمرت الأم الرئيسة بإعطائها حقنة مخدرة مع أنها مصابة بمرض فى القلب، ورفعوا ثوبها فى الشارع لإعطائها الحقنة.. وهنا لم يطق السائق صبراً وتدخل صائحاً: «لايمكن أن يكون هذا فى الشارع وامام الناس اليست بنت ناس؟».. نعم أيها السائق الشهم أنت ترانا أولاد ناس ولكن الأب الروحى والأم الرئيسة يعتبراننا أولاداً للكلاب!!

وحملوها بعد ذلك إلى بيت المكرسات(*)، وبدأت منذ تلك اللحظة قصة عذابها، ولم تشعر بالارتياح هناك ونشبت الخلافات بينها وبين المكرسات فقاموا بنقلها إلى بيت الشابات فطردتها المشرفة بعد فترة قصيرة، وهاهى تتردد يومياً على الكاتدرائية ولا أحد يسمع لها ويحل لها مشكلتها، والمحزن فى الموضوع أنها لا تمتلك أية نقود وتصوم إجبارياً حتى المساء، فلا أحد يطعمها.. أيوجد ظلم أكثر من هذا؟ الأم الرئيسة تنعم فى تركة أبيها ـ الدير ـ وهذه المسكينة لاتجد ما تأكله أو مكاناً تأوى إليه.

وبعد أن حكت لى قصتها.. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر فسألتها: «هل تناولتِ اليوم أى طعام؟»، فقالت لى: «لا».. فشعرت بعاطفة جارفة تجاهها وكانت معى بعض النقود فخرجت واشتريت لها طعاماً.. كنت أشعر أنها طفلتى ومسئولة منى، كما انتابنى شعور بالذنب، فأنا أتناول أفخر الأطعمة وهى لاتجد مايسد رمقها.. كما أننى سوف ألتحق بدير آخر وهى مشردة فى الشوارع.. وعندما صارحتها بمشاعرى قالت لى: «لأنك من دير أبو مقار اهتموا بك على الرغم من أنك رجل تستطيع تحمل الجوع والعرى والبيات فى الشارع وإن لزم الأمر تستطيع أن تعمل..

(*) نظام التكريس يختلف عن نظام الرهبنة، ففى النظام الثانى لايجوز للراهب أو الراهبة سوى بالتعبد داخل أسوار الدير، أما نظام التكريس فيجوز أن تعمل المكرسة بجوار تعبدها بالتمريض أو التدريس وهى تستطيع الخروج من بيت المكرسات ورؤية الناس والتعامل معهم، وهو نظام خاص بالأرثوذكس والكاثوليك فى مصر، وهى البلد التى صدّرت نظام الرهبنة للعالم كله.

أما أنا.. فقد أهملونى وتركونى بدون مسكن أو أية فرصة للحصول على الطعام، والعجيب أنهم يتسترون على البنات الفاجرات واللواتى وقعن فى الخطيئة مع الشباب ليتمتعن بالأكل والحياة السهلة والتى تمتلىء بالمرح والسرور، أما أنا والتى خدمت الدير منذ ٢٤ عاماً، وضيعت حياتى فى العبادة والاستقامة فهذا حالى!!

وكنت أقوم برفع جزء من طعامى إليها يومياً، وقد رجتنى أن أحكى قصتها لقداسة البابا عندما أقابله. فالأسقف العام يمنعها من مقابلة البابا، وأحسست بالمسئولية تجاهها، ولكن ماذا يمكننى أن أفعل لها وأنا لا أملك زمام أمورى؟ وكانت لدىّ عدة أسئلة أود معرفة إجاباتها منها. فمثلاً سألتها: «لماذا لا تعودى إلى بيت والدك؟»، قالت: «أبى كاهن وأخى كاهن وأفضل الموت على العودة إلى البيت، أنت تعلم نظرة المجتمع لمن تترك الرهبنة»، وحكت لى عن راهبات تركن الدير إلى حياة التشرد والضياع.. وكانت تعرف إحدى الراهبات تركت الدير وهى الآن تبيع «الفجل» للحصول على قوت يومها.

إننى أتساءل لماذا لاتقوم الكنيسة بإيواء مثل هذه الحالات وتوفير العيش المحترم لهن وخاصة أن الكنيسة شديدة الثراء؟! ولماذا تضع الكنيسة كل السلطات فى يد أم متغطرسة أو اب معتوه؟!

فمازال فى الكنيسة مراكز للقوى تدمر وتعذب فى المعتقلات، ومازالت الكنيسة مليئة بأرواح هتلر وستالين وصلاح نصر وغيرهم، ومايقال عن تشرد هذه الراهبة يقال عن تشرد الرهبان المطرودين.. فلا مأوى لهم ولا عمل ولا وظيفة ولا اى شىء، أليس من العار على الكنيسة أن بعض الرهبان يتسولون فى شوارع القاهرة؟! ألا يجب عليها أن ترعاهم بدلاً من الفضائح؟!

وبعد ذلك لم يتمكن قداسة البابا من السفر إلى الدير واصطحابى معه لانشغاله بإعداد الأساقفة الذين سيرسمهم فى عيد حلول الروح القدس، لذلك أرسلنى إلى الدير مع أسقفه المحبوب رئيس الدير وأوصاه أن يريحنى ويستجيب لطلباتى. وقال لى الأسقف العام: «سوف نذهب إلى الدير وتستقر فى مقر البابا

هناك ولكن عليك ألا تتصل بالرهبان أو تتحدث معهم». وتركت الراهبة ليد أمينة.. تركتها إلى الأخ مجدى، وهو مهندس مهذب ونبيل وقلت له: «أنت فى غنى عن أن أقول لك اهتم بها وارعها»، فرد علىّ قائلاً: «انتبه أنت فقط لحياتك، ولا تقلق عليها إطلاقاً».

●●●

تحسنت حالتى النفسية جداً أثناء إقامتى فى الكاتدرائية، فكثيراً ما قابلت أصدقاء للأخ مجدى والأخ إيهاب، واتصلت بعدد من معارفى وتمتعت بحرية الخروج والدخول والتنزه فى الشوارع، وعلى العكس من ذلك تماماً حينما رجعت إلى الدير الثانى.. حيث عدت إلى السجن مرة أخرى، فلا مقابلات أو زيارات إلا من عدد قليل من الأصدقاء من الدير الأول والذين تركوه قبلى فجاءوا لمقابلتى، وساءت حالتى النفسية مرة أخرى بسبب هيمنة الشعور بالسجن والعزلة والتى اجتاحتنى بقوة هذه المرة، وفى هذه الفترة حاولت الإقلاع عن الأدوية المهدئة.. ولم تكن تجربة سهلة أو بسيطة.. فهى تجربة «إدمان»، كنت أعلم أن علاج الإدمان يتمثل فى تقليل الجرعة تدريجياً.. ولم أستشر أحد.. وقللت الجرعة بالتدريج فانتابنى صداع شديد.. واجتاحت جسدى حالات من الارتعاش العنيف. وشعرت أن عقلى تائه فارغ من أى تفكير، وكنت أسمع دقات قلبى بوضوح والألم يملأ جسدى كله.. وهناك صعوبة فى التنفس مع بذل جهد عنيف للحصول على الهواء، وكنت أجد صعوبة فى كسر قرص «البرشام» نظراً لصغر حجمه. كل هذا مع ما تملكنى من شعور بالغضب، وذلك عندما أقارن بينى وبين المدمن والذى تناول المهدىء بإرادته، أما أنا فأشعر أنهم قيدونى وأعطونى إياه رغماً عن أنفى، لذلك يشعر هو باللذة، أما أنا فكنت أشعر بخيبة الأمل فى كل مرة أتناول فيها الحبوب، والمدمن مقتنع بأنه صار مريضاً وأن راحته لا تأتى إلا بالحبوب، أما أنا فمقتنع أنى سليم وأن هذه الحبوب هى المرض. لذلك صممت على الإقلاع عن هذه المهدئات. وبعد حوالى شهرين تقريباً استطعت أن أنقطع نهائياً عنها، ولكن حالات الاكتئاب لم تفارقنى إطلاقاً.

وحضر قداسة البابا إلى الدير وجلست معه وأبلغته برغبتى فى الخدمة والالتقاء بالناس وبعدم قدرتى على البقاء فى الدير، وكان يرغب فى أن أبقى معه، وبعد تصميمى أرسلنى إلى مطران طيب القلب فى الصعيد.

وبالفعل سافرت إلى الخدمة فى الصعيد لدى هذا المطران المحبوب، وكان بجوارنا أحد الأديرة والذى وضعت فيه بعض الراهبات اللاتى وقعن تحت ظلم

كصاحبتنا (هـ)، وعندما قويت أواصر العلاقة بيني وبينه قصصت عليه قصتها، فقال لي بالحرف الواحد:

«ليس عندي مانع من دخولها الدير، ولكن هذه الأشياء تسبب المشاكل والمتاعب بيني وبين البابا».

إذن فالكنيسة لا تمد إليهن يد المساعدة.. بل على العكس تمد الأذى لمن يساعدهن!

●●●

ثارت نفسي عليّ اليوم ثورة عارمة إذ قرأت في رسالة القديس بولس (غل ٥ : ١ - إلخ): «قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبرون بالناموس. سقطتم من النعمة...»(*).

وإذ بسيل الأفكار يجرفني ويغمرني، فأحسست بالاختناق حتى الموت فلم أبال بالكتاب وعادت نفسي إلى داخل أسوار الدير ورأيت كل أعمالي وجهادي ضد نفسي وتمسكي المفرط بأدق دقائق الأمور، وكيف زج بي الدير ودفعت نفسي لأعمال لا طاقة للبشر بها، وجاءت نتيجة كل هذا في النهاية عكسية غير متوقعة؛ بعدٌ عن الله وخرابٌ في النفس. لذلك أُحمّل كل من ترهبن المسئولية أنه لم يكن أميناً حتى ينشر الوعي من خبراته عن وعورة الطريق فيه خاصة بعد أن يكون قد أمضى ردحاً من الزمان في هذا الطريق وفي تلك الجهادات المضنية.

إن حرص الدير على ألا يلتقي الراهب بامرأة يفوق كل حرص. ألم يكتب في بستان الرهبان أن الغضب يمشي خلفها. وديرنا حريص أيضاً ومدقق في عدم وصول أي مؤثر جنسي للراهب، فلا صحافة ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا أي شيء. ويعلمنا أنه كلما بعدنا عن هذه المؤثرات كلما نجونا من حرب وأفكار لا طاقة لنا بها. وقالوا لنا إن الشيطان يستخدم هذه المؤثرات لحسابه فيكوي الإنسان بها ويزيد النار اشتعالاً.

وتركنا النساء في العالم وذهبنا إلى أعماق الصحراء وانقطعنا وقطعنا أنفسنا عن كل مؤثر وأغلقت على نفسي سبع مخادع، وإذ بي أجد المرأة في قلايتي وجهاً لوجه.

(*) الأنبا اثاسيوس، مثلث الرحمات.

لم أجدها جارحة عنى إنها فىّ. متحدة بى فى أعماقى. إنها الغريزة. ولم أتعجب بعد ذلك حينما علمت أن الرجل يحمل الأنوثة فى جيناته. بل هى مركب أساسى فى جنسه، وكذلك كل امرأة تحمل جنس الرجولة فى أعماقها.

وتفرغنا فى البرية لمحاربة الغرائز، وقد كذبوا علينا يوم أن أفهمونا أن الغرائز تموت ويمكن قتلها والقضاء عليها، وهذا لم يحدث ولن يحدث مهما ألّفوا قصصاً فى ذلك ولفقوا حكايات عن عمالقة قاموا بقتل غرائزهم، بل ذهب هؤلاء فى مغالاتهم حتى زعموا أن بعض الرهبان قد ربطوا وقيدوا الشيطان (والله أعلم).

ولكنى أقول الحق والصدق إن الغرائز لاتموت أبداً ولا أظن أن إنساناً على الأرض يتجاسر ويقول إنى قتلت الغرائز، وفى ظنى أنها تموت بعد موت الإنسان. الغريزة طبيعة، والطبيعة باقية قوية لأنها خلقة الله التى يريد لها البقاء.

ولقد فاجأنى الأستاذ ألبير بسؤال استنكار واستهجان لكلامى قائلاً: ألم يُصلّوا عليك صلاة الموتى؟ وحينذاك تعجبت، كيف أن الناس لايعرفون شيئاً عن الرهبنة والأديرة، حتى المتعلمين منهم لايفهمون؟

فأجبته: وهل معنى أنهم صلّوا علىّ صلاة الموتى وألبسونى السواد أنى نلت طبيعة جديدة أخرى ليس فيها غرائز أم أخذت قوة جديدة أنهى بها الغرائز فى ضربة واحدة؟ لا هذه ولا تلك، إن هذه الصلاة لاتزيد على كونها إعلاناً أن فايق تخصص للمعيشة فى الدير كإنسان كرّس حياته للعبادة (الشىء الذى لم يحدث)، وأن اسمه يدعى جاورجى فيما بعد وليس فائق زكه بولس.

إن الذين يعتقدون أننا (كرهبان) ملائكة هم فى عمى فكرى، أما الذين يعتقدون أننا نعيش بطبيعة غير طبيعة البشر فهم جهلاء لايعرفون شيئاً.

إن النسك لم يغير طبيعتنا بل على العكس تماماً.. أحياها وأيقظها ونبهها وجعلها تقوم وتتمرد علينا.

يحملون الشيطان المسئولية عن هذه الحرب، ولكنى أحملها للغريزة، الغريزة هى التى حاربتنى وهى التى واجهتنى. الشيطان يمكن أن يحرك فكرى لا أكثر،

فإن صددت الفكر من بدايته ارتدع. الشيطان لايملك أن يلهب عاطفتى أو يحرك غرائزى مادمت لم أسمح له أنا بذلك. طيلة حياتى الرهبانية وأنا أحس أن الشيطان أضعف وأصغر من الصورة التى رسمها له الناس، ربما استطاع الشيطان أن يدبر موقفاً لأواجه المرأة كمرآة وجهاً لوجه، أقول ربما، فبينما أنا فى قيظ مثل هذا وفى طريقى للعمل بعيداً عن طريق الزائرين إذ بى أجد سيارة سوداء جميلة تدير عجلتها امرأة جمالها يقتل فأغمض عينى وأسرع فى طرف الطريق لكى أبعد عنها وأقول فى نفسى ليتنى أختبىء تحت الأرض هذه اللحظة ولكنها تظل تقترب وتقترب. وترتجف أوصالى وإذ بها تقف أمام بسيارتها، جاءت فى الطريق خطأ ولكنها تقصدنى، عجباً!!

وتفتح باب سيارتها وتنادى علىّ «أبونا»، فأتسمر فى مكانى ولا أدرى إن كنت رددت عليها أم صعقتنى الدهشة، إلا أنى أرى ساقها العارية البيضاء الجميلة تخرج من السيارة، وفى لحظة خاطفة يذهب فكرى كل مذهب ماهذا الجمال يارب؟ ولماذا خلقته؟ ولماذا حرمت نفسى منه؟ لعنة الله على الرهنبة والرهبان.. ساقها كاللبن المنسكب على الأرض، ليت هذا اللبن ينسكب على شفتى المشققة من العطش المقددة من الحر والظهيرة.

أهذه الساق الجميلة تدوس على الأرض ليتها تنزل على قلبى ولا تلمس الأرض، وماهذا الصندل الجميل إلا قطعة من الجنة، إن طول كعبه سبعة سنتيمترات.. نعم لدىّ القدرة على قياسه بهذه الدقة، حتى ولو لم تنزل من سيارتها حتى ولو لم أرها مطلقاً.

ألست صاحب غريزة قوية؟ سألتنى عن قلاية أحد الرهبان أنا لا أذكر ردى عليها، ولكنى مازلت أذكر جمالها وشبابها وملابسها، بلوزة سوداء وجيبة قصيرة سوداء، حتى جمال حذائها مازال عالقاً بذهنى حتى الآن، وعدت إلى الدير لا أقصد قلايتى إطلاقاً، بل قاصداً أب الاعتراف، فقد وقعت فى مصيبة، فقد اشتهيتها، والشهوة زنا، وكيف أزنى وأنا راهب خُصص للقداسة والعبادة، ويزيد أب اعترافى أثقالاً على أثقال ضميرى وقوانين أكثر من قوانينى. لعنة الله عليه.

قل لى بحق الجحيم لا بحق السماء كيف لك ألا تشتهى فى ظروف مثل هذه وقد بعدت عن الإثارة فى الكتابة، فلم أكتب لك مثلاً عن أخرى وهى نازلة من

سيارتها أن ملابسها كانت قصيرة جداً فرأيت كل جسمها حتى كدت أن أرى ملابسها الداخلية.

ولم أكتب لك عن شابة حاصرتنى حتى كادت أن تقتلنى ولكن ربك ستار، لكم صليت وقلت له استرنى كما تستر (الولايا)، اعتبرنى (ولية) واستر علىّ أرجوك لا تجعلنى يوماً أقوم بعمل أندم عليه طيلة حياتى، احفظ أعضائى لا تكشفها حتى الموت، اربط قلبى فيك فلا تزل قدماى.. لكم صليت ولكم طلبت.

ربما يتهمنى أحد بعدم قداسة الفكر، الله يعلم كم كنت أغسل فكرى ونظرى ويجب أن ألفت نظره أن بفكر وأعمال الرهبان أشياء يخزى الإنسان من مجرد ذكرها. وأزيد وأقول إننى لم أكن وقحاً يوماً من الأيام فألقى بالله خلفى وأخلع عن قلبى الرهبنة وأحتفظ بها فى ثوبى فقط، كما فعل آخرون من كل دير وصنعوا علاقات جنسية مع نساء على قارعة الطريق (الصحراوى).

حينما دخلت تحت الحجاب ليصلوا علىّ صلاة الموتى وقف أبو الفطوط يقرأ علينا مايقرأه كل عام بهذه المناسبة، وقال: «إنى أرى الشيطان الآن باكياً نائحاً ولشعر لحيته ناتفاً».. أى أن الشيطان حزين لأنا ترهبنا، والحقيقة التى لا يعلمها إلا الله وحده أن الشيطان هلل وتقافز من السعادة والفرح والمرح وربما كانت تلك الساعة هى موعد حفلته مع باقى الشياطين، إذ يحتفل بستة أشخاص دخلوا الرهبنة دفعة واحدة، فقد وفروا عليه جهداً كبيراً فى الحرب إذا مالبثوا فى العالم، هذا الجهد سوف يقوم به الرهبان أنفسهم، فهم سيحاربون بعضهم بعضاً.. وكما أن السماء تفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر من ٩٩ باراً لايحتاجون إلى توبة، هكذا الشيطان يفرح براهب واحد يترهبن، خاصة فى ديرنا أكثر من ٩٩ إنساناً يضل فى العالم. فرجوع الضال فى العالم فى غمضة عين أما الراهب فهو ضال ويضل كثيرون ورجوعه إلى الله فشبه مستحيل، كما قال السيد المسيح عنه إذا فسد الملح فبماذا يملح أو كيف تقاد إليه ملوحته.

ورهبنة ستة سوف تكفيه من شرهم إذا خدموا وبشّروا بالصلاح والبر فى العالم. أما فى الدير فسوف لايكون ثمر، فمن يبشرون، هذا إن استطاعوا أن يبقوا فى صلاح أنفسهم لأن فى حالات كثيرة تخرب النفس وينقطع الخلاص.

أعود للغريزة وأقول كيف كنت أكتشف البهائم فى دورة شبقها الصامتة والتى كانت تفوت على «العجل» المدرب لذلك الكشف، أليس بالغريزة الجنسية القوية؟ كيف كنت أستخرج المشيمة فى وقت قياسى لم يبلغه الأطباء البيطريون (أحياناً فى ثلث ساعة فقط).. وكيف كنت أقوم بعمليات الولادة بفرح وفن وسعادة بالغة.. كيف عملت بحث فى كيفية تدريب العجول على التلقيح الطبيعى وقمت بتنفيذه، وما فشل فيه الدير ومركز البحوث وما كان يقومون به فى شهور قمت به فى ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر. كيف كنت أحدد (بالجس) عمر الجنين فى بطن أمه باليوم.. كيف كان لدىّ القدرة على القيام بعمليات نقل الأجنة على الرغم من أن ليس هذا دراستى أو مجالى. كل هذا أليس بالغريزة الجنسية القوية؟

ألم يقل لنا متى المسكين، وهو صادق فى أقواله إلى حد كبير كاذب فى أعماله، ألم يقل لنا إن أصحاب الغريزة القوية أذكياء نشطاء ونومهم قليل وأعمالهم كثيرة ومتنوعة، والعكس تجدون الضعيف جنسياً خاملاً متكاسلاً متباطئاً نومه كثير.

كم صمت صياماً شديداً بلغ مع هذا العمل الشديد الذى وصل أحياناً إلى ثمانى عشرة ساعة، بلغ إلى الإفطار وقت ظهور النجوم على الخبز والماء فقط، وكم تكرر سجودى ليرفع الله عنى هذه الحروب إلى مايزيد على الـ٤٠٠ مطانيه (السجود ثم القيام واقفاً). وكم استرشدت بآباء الخبرة والاعتراف حتى كنت أعترف يومياً حتى على مجرد فكرة فى عقلى، وقالوا إن طريق الراحة طريق الهلاك، فلم أرح جسدى قط ولا نفسى قط ولم أدللهما إطلاقاً. ولا أذكر أنى نمت أكثر من أربع أو خمس ساعات طيلة سنين الهلاك تلك، كم كنت قاسياً وعنيفاً مع نفسى حتى إذا وجدت نفسى مائلة إلى تناول صنف ما من الطعام أفرض على نفسى قانوناً بعدم أكل هذا الصنف لمدة عام (بتصريح من أب الاعتراف). وكم بالغت فى القيام بالأعمال الحقيرة لأنهم قالوا إن القيام بأعمال حقيرة يذل النفس والله يرى مذلة النفس فيرفع عنها الحرب فغسلت دورات مياه الدير ومسحت أحذية الرهبان (سراً) وأبدأ الحرب (شفـ‍[illegible]) فى سكون الليل وضجيج النهار، فى عمق الصلاة وفى النوم والأحلام المتكررة والاستحلام الذى

كان يتكرر بصفة يومية. أطفىء النور فى وقت الاستحمام لكى لا أرى جسدى عارياً فأعطى للنار حطباً وأتلو كل التعاويذ قبل دخول الحمام وبعد الخروج منه، أما القراءات عن العفة والطهارة فزادت عن أن تحصى أو أن تعد، وقد بلغ عدد قراءاتى لبستان الرهبان أكثر من تسعين مرة حتى حفظته عن ظهر قلب، ولم أضيع دقيقة واحدة من وقتى فشغلت نفسى عن لذة الطعام بالقراءة أثناء الأكل، ولم أصاحب راهباً، فالدالة ممنوعة وربما أدت، فى اعتقادهم، إلى فضائح جنسية. ولم أتناول الشاى مع راهب ولا دخلت قلاية راهب.. وأعتذر لكل راهب عن أقل كلمة أحس ولو لم يحدث بالفعل أنها خدشته أو سببت له شبه ألم.. دققت فى كل كلمة، فى كل نظرة، فى كل همسة، فى كل لمسة، فى كل شىء، حتى احترقت من كثرة وشدة التدقيق وعيشت نفسى فى جحيم اسمه الإحساس بالذنب الدائم.. وكما سبق وقلت ذهب الفرح بالعبادة ولم يرجع.. ذهب الفرح بالخلاص المجانى على حساب الدم النازل على الصليب وحل محله اكتئاب بسبب «عملت كذا ولم أعمل كذا، أكملت كذا ولم أكمل كذا».. إننى أكتب شهادة حية للأجيال والتاريخ وليهاجمنى المهاجمون وليقتلنى من يريد.. إن يوم فرحى يوم أن يخرج كلامى هذا ويرى النور، يوم أن يقرأه كل من يهمه الأمر وكل من لايهمه الأمر، إننى أحس أن رسالتى الآن هى نشر هذا الكتاب ثم أموت بعد ذلك.

ذهبت بعد أن اشتدت الحرب علىّ لأب اعترافى فقال لى: قم بالأعمال الحقيرة، اجمع زبالة الدير.. وكنت أقوم بذلك قبل أن يقول لى ولكنى ألزمت نفسى بها أكثر، وهى تلال من القمامة توضع فى مدخل كل مبنى ولا أقول كما قال «متى المسكين»: «إن الوساخة من الرهبان»، إطلاقاً بل إن أعمالهم التى يقومون بها فوق طاقتهم ولا وقت عندهم للراحة وبالتالى فلن يكون هناك وقت لديهم لجمع القمامة. ولا بعد أن جمعت القمامة هدأت الحرب، فكانت رفيقات مراهقتى تظهرن لى من حين إلى حين، تمد إحداهن يديها داعية لى وتهمس أخرى فى أذنى بذاك الكلام الخسيس البذىء الذى تهامسناه فى الظلام وأنفض عنى صور الفكر، ولو أملك لوضعت فى أذنى «مَية نار» كى لا أسمع همسات رفيقات المراهقة.. فاهتديت إلى فكرة أذلل بها نفسى كل الذل، ألا وهى أن أضع روث البهائم على رأسى ووجهى وأن أعفرهما بقاذورات الحظيرة.. ولم تنته

الحـرب، فبـالغت وحـملت قـاذورات الإنسـان على رأسى ووجـهى. وكلمـا اشتـدت الحـرب علىّ قمت بالدخـول إلى الحمـام وتكرار هذا العمل الذى لم يجـرح نفسى فقط، بل آلمها ألماً شـديداً وأذاها.. ألـم تحسستـه اليوم وعـاد إلىّ الإحـسـاس به حينمـا قـرأت فى الإنجـيل عن الحـرية التى حـررنا المسيح بهـا (غل ٥: ١)، وكيف تبطلنا على هذه الحـرية بهذه الأعمال القـذرة التى لم تسـتطع أن ترفع عنا شىء. مظلوم أنا، أو بالحق ظلمت نفسى فى حياتى سواء فى فترة الدير أو بعد الدير.

13

يوميات الحرمان في الدير

لم يكن الدير بخيلاً فى عطاياه لمن هم خارج الدير من المحتاجين فقط، بل لم يكن يدفع إلا فى المواضع التى تجلب له الربح والعظمة، وكان بخيلاً فى الداخل أيضاً..

كان المتبرعون من كل مكان يحملون للدير مايلزم الرهبان، وتوصع الملابس و«الشباشب» (يلبس الرهبان الشباشب حتى فى الشتاء البارد، ويُمنع لبس الأحذية إلا فى حالة السفر خارج الدير)، فى مخزن، وأكثر ما يستهلك (الشباشب الجلد)، لذلك وضع الأب الروحى قانوناً أن لايصرف للراهب شبشب جديد إلا كل أربعة أشهر على الرغم من توافرها بالمخزن واستهلاك مايُستعمل فى الكم الهائل من الكيلومترات التى يسيرها الراهب فى اليوم الواحد. أما الغيارات الداخلية فتصرف مرتين فى السنة، مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف، وكان الأب المسئول عن الدياكونية يأخذ هذه الغيارات الداخلية التى تأتى إلينا مجاناً من الفيوم ويبيعها للعمال فى كانتين العمال، ولأن الرهبان ليس لديهم نقود فممنوع عليهم حتى مجرد رؤيتها.

أما الأب المسئول عن القرطاسية فيسألك خمسة عشر سؤالاً قبل أن يعطى قلماً أو كراساً ولاسيما إذا كنت تطلب قلماً «فلو ماستر»، وذات مرة ذهبت لأطلب مسطرة، وياليتنى ماذهبت ولا طلبت، فقد غضب الأب واحمر وجهه الأحمر وزمجر وأعطاها لى وهو يقول الأولى بالمساطر الرهبان المهندسون لكى يخططوا مشاريع الدير. ولعلك - عزيزى القارئ - ظننت أن المسطرة تخص الهندسة فى شىء.. أبداً.. كانت مسطرة عادية مثل التى فى يد تلميذ الابتدائى. ونزلت الدرج من قلايته وساقاى غير قادرتين على حملى، إنها مهزلة.. مهزلة بمعنى الكلمة. لقد أوصلنى الدير إلى حالة يرثى لها، فأنا لا أملك مسطرة ولا ثمن مسطرة وأهان إذا طلبت مسطرة.

علماً بأنى كنت أحمل فى حقيبتى (السمسونايت) ـ أثناء التدريس عام ١٩٧٩ ـ الأقلام والأدوات الهندسية أهديها كتشجيع للطلبة المتفوقين، ولم تخل حقيبتى من الحلوى التى كنت أوزعها على الجميع من الناظر حتى الفراش. كيف وصل بى الحال إلى التوسل وجرح الكرامة من أجل مسطرة لايزيد ثمنها ـ فى عصر من العصور ـ عن الجنيه الواحد؟ أهكذا الراهب لديهم لايساوى جنيهاً واحداً؟

ما أثر فى نفسى ولن أنساه هو عدم توافر الفول المدمس فى العشاء، فهو الوجبة الرئيسية أثناء الصوم (أكثر من سبعة شهور فى السنة)، وأحياناً يوجد بجواره زيتون وأحياناً لايوجد بجواره شىء، أما الزيتون فهو من النوع المخروم أو المضروب، وعليك فتح الزيتونة قبل أكلها للتأكد من خلوها من (......)، فعلى الرغم من هذا الكم الهائل من الزيتون إلا أن الرهبان والعمال يصرف لهم زبالة الزيتون، أما الزيتون الجيد كالكالامتا (اليونانى المزروع فى الدير) فيعطى هدايا لكبار الأغنياء أو يباع بثمن غالٍ، والدير يعطى هذه الهدايا ليس لأجل سواد عيون الأغنياء بل لتجربة الدير معهم، فحينما يردوا هم على هدايا الدير، فتصل مثلاً قيمة «صفيحة الزيتون» إلى ألف جنيه، أليست الهدايا إذاً مربحة أكثر من البيع؟ وأليس هذا أيضاً مخالف لأقوال المسيح: «إذا صنعت غداء أو عشاءً فلا تدعو أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك مكافأة. بل إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجُذع العُرج العُمى. فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافئوك. لأنك تكافأ فى قيامة الأبرار» (لو ١٤: ١٢ ـ ١٩).

أعود للفول المدمس أقصد فول (البريستوا). فالكمية قليلة لاتكفى الرهبان، فمن عاد من العمل مبكراً كان له السبق فى حيازة مغرفة فول، أما من تأخر فى العمل فيعود ليجد الخبز فقط فى انتظاره وتتبرم نفسه وتتقزز حتى ولو كان قديساً. أبعد هذا العمل الشاق لايجد حتى الفول المدمس الذى يتوافر لأفقر فقير فى شعب مصر؟ وتوافره هذا نعمة نحمد الله عليها ونطلب أن يديمها على الشعب. فيكفى أن نأكل ونلبس!!

حينما أعود مبكراً من العمل يمكننى أن أحمل نصف كمية الفول الموضوعة

(بالحلة) ولكنى كنت أذكر إخوتى الذين سوف يأتون متأخرين وآخذ كمية من الفول على طرف المغرفة لاتكفى لإطعام فطيم، علماً بأن الفول يؤتى به كتبرع للدير.

وحينما كنت أذهب لمهام خارج الدير وأمر فى المدن على محلات عصير القصب وأشتم رائحته يسيل لعابى، فقد كنت أحبه حباً شديداً. أمنع نفسى من شربه لكى لا أميز نفسى عن الرهبان الكادحين بالدير الذين لايستطيعون شربه أو الحصول عليه. لكمْ كنت صاحب مبادىء فى دير انعدمت فيه المبادىء.

وفى أيام الإفطار نأكل الزيادى ونشرب اللبن والحمد لله، ولكننا نتوق لرؤية الجبنة البيضاء، فهى عملة ليست نادرة وحسب بل وممنوعة أيضاً، على الرغم من كميات الجبنة التى يصنعها المعمل يومياً، وكما كانوا يقولون «جبة الدير لا يعلى عليها». كانت تصرف للرهبان ما يطلقون عليها الجبنة القريش وفى حقيقتها لم تكن إلا قطعاً من البلاستيك شديد الصلابة التى لا طعم لها ولا رائحة وإنما تحتفظ كالأحجار باللون الأبيض فقط.

كان الرهبان خارج الكنيسة فور انتهاء صلاة الغروب فى طريقهم إلى قلاليهم وأعمالهم وإذ بصوت رئيس الدياكونية الغاضب يرتفع أكثر من الدرجة التى كان يقود بها الصلاة داخل الكنيسة منذ لحظات صارخاً الجبنة البيضة ممنوعة، الرهبان لايأكلون الجبنة البيضاء، إنها تصنع نجاسة للرهبان»، وهو يقصد أن دسم الجبنة يتحول إلى طاقة فى الجسم تزيد الشهوة اشتعالاً. كان يصرخ فى وجه الأب الذى مال على أذنه طالباً إذناً بأخذ جبنة بيضاء للرهبان فهو المسئول عن المائدة. وامتقع وجه الأخير الذى أحرج أمام الجميع والذى عبّر عن طلب الجميع. فانتحيت به جانباً وحددت له موعداً بالليل لمقابلته. وكنت دائماً قلباً للرهبان فى أحزانهم وأفراحهم، وكنت مسئولاً عن إطعام رئيس الدياكونية هذا، وكان مسموحاً لى بدخول مطبخه سواء كان موجوداً أم غير موجود. وله ثلاجة بقلاية مجاورة مسموح لى بوضع ضعء له فيها أو حمله منها إليه.. وفتحت الثلاجة أمام المسئول عن المائدة وذهل وتعجب وضرب كفاً بكف (جبنة فلمنكة - لانشون - جبنة رومى وأخرى صفراء - بسطرمة.. لحوم..

فواكه..) وقال: يصرخ فى وجهى الجبنة البيضاء تصنع نجاسة الرهبان وكل هذه الأشياء لاتصنع نجاسة له؟! وهكذا واسيت ذلك الراهب وخففت من آلامه وكلما التقينا ضحكنا ملء شدقينا.

كانت الخيرات التى تأتى إلى الدير أو من الدير تمر على رئيس الدياكونية أولاً فهو المسئول عن إطعام الأب الروحى، ولأول مرة أرى أن التفاح الأمريكانى يُقشر. ولم يكن الأب الروحى أقل ترفاً منه ولكننا كنا نلتمس له عذراً، فبالإضافة إلى كبر سنه كان يشكو من عدم كفاءة معدته فى الهضم مع أن بطنه لها القدرة على هضم رهبان وعمال الدير بأكملهم. وحتى أثناء الصوم كنت أذبح له الديوك التى تشوى له. وهو لايأكل خبز الرهبان بل يُصنع له خبز من الدقيق الأبيض (الفينو). وبينما كنا لا ننام من شدة الحر ولا نجد المبيد الحشرى للبعوض إذا به يتمدد تحت التكييف وحينما طلبت منه تغطية سطح المبنى بالطفلة لتقليل الحرارة التى نسلق فيها نهاراً وليلاً وضع فى إحدى أذنيه طيناً والأخرى طفلة.

وعلى الرغم من بخل الدير هذا وتقتيره إلا أنه كان يساعد بيت للمكرسات، لماذا؟ لأنهن بنات!! علماً بأن بيوت المكرسات مسئولة من الكنيسة، كما أن هذه البيوت تحظى بعطف الأغنياء، فلماذا يساعدهم الدير، وقوانين الرهبنة تحرم حتى ملاقاتهم فى الطريق؟! لقد حول الأب الروحى لا العمل الروحى (العبادة) فقط بل والعمل المادى أيضاً إلى سعى وراء المادة وحسب، فالغاية تبرر الوسيلة، سعى غير مسنود بهدف روحى أو إنسانى.

فهو يمنع الزيادة فى عدد العمال لكى لايدفع زيادة فى الأجور وعلى الرهبان الـ ١٠٠ أن يعملوا مشرفين وعمالاً، وبدل ٨ ساعات عمل فليعملوا ١٨ ساعة، وليس هناك إجازة أسبوعية كما ذكرت. وممنوع على الرهبان والعمال الذين يزرعون ويجمعون بأيديهم أن يذوقوا التفاح والتين والعنب.. فالسلع الممتازة تباع بأسعار ممتازة. ومابقى منها أو مايمكن الاستغناء عنه منها فاللرهبان والعمال. وحتى بهذا كان يعيّرنا رئيس الدياكونية، فكان يقول لنا: «كل واحد فيكم بياكل بـ ١٠٠٠ جنيه فى الشهر وأنكم لن تستطيعوا إطعام أنفسكم إذا تركتم الدير». لكم كان قذراً خسيساً دنيئاً.

لو كان لديك ماكينة تعمل وتدر لك ربحاً أما كنت توقفها عن العمل وتصنع لها صيانة؟ ألا تغير لها الزيوت وتمدها بالوقود؟ وإن لم تفعل ذلك فأنت تدمرها وسوف تُدفع لشراء بديل لها، ولكنهم لايدفعون فى شراء رهبان لأن الرهبان يأتون إليهم، فليذهب راهب وسيأتى عوضاً عنه آخر. وكما كان يقول أحدهم: إن الرهبان لدينا كأعواد القصب نعصرهم ونأخذ العصير ونلقى بالنفاية خارجاً.

ولم يكن ضمير الدير نظيفاً فى البيع والشراء، فحينما كنت شاباً ورأيت عملية «التوشيش» (وضع أجود النوع على الوجه وفى أسفله ماهو أقل جودة) استنكرت ذلك على الدير وسألت الأخ المشرف فلم يجبنى وقال سوف يأتى الأب المسئول ويمكنك سؤاله، فسألته وكان دبلوماسياً فقال لقد نزلنا إلى مجال التجارة وعلينا أن نتبع أساليبها والتوشيش أحدها. فقلت ولكنكم دير ورهبان؟ ولم اقتنع ولكنى أحسست ببعض الراحة لاستطاعتى إخراج ماكان يدور بعقلى وقلبى.

وما يصنعونه فى الطماطم يصنعونه فى البطيخ، وكنت أشرف على تحميل السيارات بنفسى، (البلى) كل السيارة ويغطى ببطيخ حجم كبير. وما ذكرته غيض من فيض، وهم يجيدون التمثيل، فالممثلون الحقيقيون ليسوا أولئك الفنانين الذين يجسدون الأدوار، الذين قدموا حياتهم ومواهبهم للعمل الفنى ويمتعون الإنسان طيلة حياته، كما يقوم كل منهم بتأدية رسالته فى المجتمع، ولا يهم كثيراً إن كان لدى بعض منهم سلوك شخصى بعيد عن الصواب. أما الممثلون الحقيقيون فهم أولئك الذين قال عنهم بولس الرسول: «لهم صورة التقوى وهم ينكرون قوتها».

هم الذين أقاموا أنفسهم «حراساً على أسوار المدينة ولكنهم جعلوا على أسوارها.. إثماً ومشقة» نعم أقيموا رعاة على النفوس وهم لصوص النفوس، كما قال السيد المسيح: «السارق لايأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلك، أما الراعى الحقيقى فهو الذى يبذل نفسه عن الخراف»، وما أكثر النفوس التى سُرقت وذُبحت وهُلكت فى ديرنا.

نعم هم أولئك الذين يقدسهم الشعب حق التقديس حتى ذهب الكثيرون

منهم إلى أبعد مايكون، فقد كانت والدتى تأخذ من تراب الدير وتصره فى منديل وتقول: «هذه بركة»، التراب الذى يمشى عليه القديسون الرهبان.

الله يعلم لو انجلت الحقائق لكان أحرى بالرهبان أن يصروا التراب الذى تمشى عليه والدتى فى مناديلهم أو يكحلوا به عيونهم لكى تبصر وتتطهر من أدناسها ونجاساتها، فمازالت والدتى عابدة مصلية سلوكها قويم، وكان أبوها واعظاً، وأمها تقية وانكبت على العمل بالحياكة لتساعد فى تربيتنا.

14

الاكتئاب.. قاتل الرهبان

أرى أن عذاب جهنم سيكون ابتلاء الله الأشرار بالاكتئاب النفسى، ولو أننى أملك فصاحة لغات العالم وبراعة أفضل وأحسن وأدق كاتب لا أستطيع وصف الاكتئاب النفسى وما يعانيه مريض الاكتئاب النفسى.

فبينما تنزلق أخبار الحوادث والأمراض من على أذن أحد الأشخاص إذ بالشخص الآخر يتأثر بها فتدخل إلى أعماقه ووجدانه، وكلما كان الإنسان قريباً من الحدث أو مر به سابقاً كلما قوى شعوره به، على أن هناك أشخاصاً لهم الحساسية الشديدة فيعيشون أعماق الكاتب ويحسون أحاسيسه حتى وإن لم يقتربوا من تجربته.

إنه عذاب فى النهار كما قال أيوب النبى: «إن قلت فراشى يعزينى مضجعى ينزع كربتى. تروعنى (يا الله) بالأحلام والكوابيس وترهبنى برؤى» (ايو ٧: ١٣، ١٤). وعذاب فى الليل كما قال هو أيضاً: «فإذا اضجعت أقول متى أقوم (متى يأتى الصباح) الليل يطول وأشبع قلقاً حتى الصبح» (أيو ٧ : ٤). فى النهار من شدة الضيق ينتظر المريض الليل معتقداً أنه سينام ويرتاح، والويل له إن حل الليل فلا نوم ولا راحة.

هذا المرض اللعين لا يصيب إلا الذين لهم حس مرهف ومثالية عالية، ولم تكن لى هذه المثالية قبل وصولى للصف الثالث بالكلية، ولكن فى ذاك العام بدأت أتجه وجهة دينية صرفة وأدقق فى سلوكى وحديثى كل التدقيق وأتحسس مشاعر الآخرين وأحب الناس بشدة وأعطف عليهم وأعطى بسخاء كل ماعندى حتى لو كنت محتاجاً، وبدأت أتسامى عن الماديات والشهوات وركزت هدفى ونظرى فى الروحيات.. وكان التغيير واضحاً وهائلاً، أيكون هذا بداية المرض؟ لست أدرى. أتكون هذه الأمور أعراض المرض؟ لست أدرى.

ولكن ما أدريه أنى كنت أدرب ضميرى أن يكون بلا عثرة، أى لا أجعله يشتكى علىّ أو يلومنى فى شىء، فلا خبث ولا كذب ولا سرقة حتى ولو بنظرة لفتاة جميلة تسير أمامى وكانت هذه الأمور تكلفنى الكثير من الضبط والكبت، لأن الرغبات تضطرم فى داخلى كالبركان، وكنت عنيفاً مع نفسى، فقطعت بسكين حاد العلاقة العاطفية التى تربطنى بزميلتى فى الكلية وهى من نفس بلدتى ولها علاقة حميمة بأسرتى، وفى الحقيقة قطعت قلبى ومزقت نفسى، لكم بكت المسكينة (كما بلغنى).. ولكم تلويت أنا من الألم، وفى حقيقة الأمر أننى قطعت مايربطنى بالحياة وبالأمل والمستقبل فى هذه الحياة وربطت نفسى بالحياة الآخرة، ووضعت فى طريقها كل ما أملك من إمكانيات، بل كل كيانى.. أترانى كنت واهماً وأنه ليست هناك حياة آخرة بدون حياة دنيا؟ لست أدرى. ولكن الرهبان يدرون، فالذى قضى أكثر من عشرة سنوات بالدير يعرف الإجابة جيداً، وأؤكد لك أن معظمهم يرغب فى العودة للعالم ليعيش مابقى من حياته فى حياة الدنيا ومعظمهم فى أعماق أعماقه مقتنع بأن الرهبنة تجربة فاشلة مائة بالمائة، ولو عاش كل منهم فى العالم وسارت حياته طبيعية لما فقد نفسه وفقد الآخرين ولكانت له خدمة دينية فى العالم مشرفة ولظل الرباط الذى يربطه بالآخرة قوياً ومتيناً.. فهاهو جرس الكنيسة فى الدير يدق يدعو الجميع للصلاة ولكنك لن تجد سوى أربع أو خمس رهبان يصلون، فالرغبة فى الصلاة ماتت وهاهو أبونا (فلان) يفضل الجلوس فى قلايته عن الصلاة، وأبونا (علان) يطوف حول حوض الزرع ليريح نفسه ويبدد ما بها من ضيق، وعبثاً يفعل، فكل يوم يدور حول حوض الزرع والدائرة لا تنتهى، وقد أُخذت الدائرة رمزاً للمالا نهاية. وأما أبونا (ترتان) فيهرب من الصلاة باندماجه فى العمل، وما سر إفنائه نفسه فى العمل سوى الهروب من الصلاة ومواجهة نفسه بل يقيناً الهروب من حياة الرهبنة التى اقتنع أنه تورط فيها ولا يستطيع الرجوع عنها. فالتجربة خاسرة والعمل منقذ ومخرج من التفكير فى سوء حاله وخيبة آماله، كما أنه بالعمل يحقق بعضاً من النجاح، والنجاح يريح النفس ويزيل بعضاً من كآبتها. وصدقنى لا أكتب لك هذا لأهاجم الرهبنة بل أكتب لك حقيقة عشتها ولمستها والله يعلم أنى أمين فيما كتبت، ولا أكتب هذا لأبرر خروجى من الدير. ولست حالة فردية، فمن ديرنا خرج

أكثر من نصف عدد رهبان الدير كما صرح بذلك قداسة البابا شنودة فى إحدى عظاته لطلبة كلية الإكليريكية، وكنت حاضراً تلك المحاضرة، وسمعت منه ذلك بأذنىّ. هذا بخلاف عدد الأخوة الذين يتركون الدير.

أما أبونا (سنكرلان) فلم يذهب للكنيسة، فقد تمكن بعد جهد وتخطيط وذهابه عدة مرات بحجة مساعدة آباء المطبخ تمكن أخيراً من سرقة حلة وأغلق على نفسه ويقوم بعمل طبخة شهية ربما تكون المسقعة لأننا من يوم دخولنا الدير لم نرها، نعم. أما البطاطس المحمرة فكانت شهوة الرهبان، ولم يكن الأب الروحى مؤدباً بما فيه الكفاية ولم يكن مراعياً للشعور، فقد أعلن فى الدير صراحة أن أبانا (سنكرلان) قام بسرقة حلة (طنجرة) من المطبخ، والله يعلم أنى تألمت لهذا، وقد كان هذا الراهب محترماً فى العالم وكان مدرساً ومن بيت له عراقته والده معروف فى كنائس مصر كلها. نعم الحرمان الشديد يجعل الإنسان يفعل التفاهات والدناءات.

إن أكبر خسارة وقعت لمن اختار الدير طريقاً وبعد سنين سواء ترك الدير أو ظل به هى فقدانه للرابطة الحميمة الحلوة اللذيذة بالله والصلاة والعبادة والسهر والمناجاة والصوم والتعفف.

هذه حقيقة مرة يرفضها السطحيون (والدراويش المسيحيون)، ولكن يقرها حقيقة دامغة أولئك الذين تركوا الدير، وأولئك المسنون من الرهبان الجالسين وظهورهم تستند إلى سور الدير، أما أفكارهم وقلوبهم فقد عادت للعالم، عادت بيأس، عادت بعد عذاب ومعاناة، ولن تعود لأجسادهم الموجودة بالدير وستظل هذه الفرقة حتى يموت الجسد ويدفن فى التراب وستحلق هذه الأفكار حتى بعد موت الجسد فوق بيوت أحباء الراهب وأهله وأرضه وأمواله وزراعته.

●●●

وأعود للاكتئاب النفسى.. فبينما كانت تدب الخلافات بين الرهبان كنت أحدد فى نفسى من المخطىء ولماذا أخطأ ومن البرىء من الظالم ومن المظلوم، وكنت أرتاح إلى النتيجة التى أعلم أنها حقيقة، حتى لو بلغتنى قصة الخلاف ملفقة. ولكن فى السنوات الأخيرة فى الدير كنت أسمع قصة الظالم الذى يبرىء

نفسه فأصدق أنه برىء مئة بالمئة ثم أسمع قصة المظلوم فأصدق أنه برىء مئة بالمئة، وإذا قابلنى راهب بترحاب وبشاشة أجد شعوراً بالحب الشديد يتدفق من قلبى تجاه هذا الراهب، وأذكر له حسناته وأعماله الطيبة، وبعد ساعة واحدة فقط إذا صدر أمر سىء من نفس الراهب أجد الكره الشديد والحقد وحب الانتقام يتدفق من قلبى تجاهه وأتذكر كل أعماله السيئة منذ دخولى الدير. وهنا علمت بالخلل، نعم عرفت أنه قد حدث لى خلل ما. فلست أنا الذى لايحكم على الأشياء حكماً موضوعياً، ولست أنا بالذى يغير أفكاره وأحاسيسه بهذه السرعة، وساعتها ارتعبت لأن مايرعب الرهبان الأصحاء نفسياً خوفهم من أن يصيروا مرضى نفسيين مثل إخوتهم الباقين، فهم يعلمون كم يعانون من المرض ومن العلاج، بل إن جميعنا يعلم بعدم جدوى العلاج، فلم يحدث لراهب أن عادت نفسه صحيحة كالأول، وحتى لو كان فنحس إحساساً خفياً أنه عرضة للمرض مرة أخرى ومهدد بأن يصرعه المرض وسيكون أسوأ مما كان.

أما جرس الإنذار بالخطر فكان عدم النوم، إن النوم نعمة كبيرة من الله، وعلى من ينام نوم طبيعى أن يشكر الله كل صباح وينحنى مقبلاً الأرض مجداً لله مسبحاً إياه مرنماً ترنيمة الامتنان متلياً أسماؤه الحسنى. إننى أكتب هذا وأنفاسى تتقطع لتذكرى عذابى فى عدم النوم، نعم كانت ليالى سوداء بمعنى الكلمة، وسنين شقاء بمعنى الكلمة.. كانت يداى وبدنى يرتعش لحاجتى للنوم، كان الضيق هائلاً جاثماً فوق صدرى مستبداً بى ضاغطاً على أنفاسى، وتتفذ أظفار مخالبه فى عنقى، أما الصداع المريع يحطم رأسى.. كل هذا جعل حجراً ثقيلاً من صوان فى بطنى، آلام شديدة ومغص يشل حركتى ويجعلنى أستلقى على ظهرى بالأربعة أيام لا أستطيع الحراك، والويل لى إن أردت تغيير وضعى، وويل الويل إن كنت مصاباً بالكحة فهى تمزق أمعائى لتخرج منها ولا تخرج من حنجرتى، وقد أصبت بالحساسية فى كل جسدى وأصيبت عيناى بالحساسية أيضاً فكانت النار تأكلهما.

فى البداية كانت القراءة تخفف عنى، وخاصة القصص فأعيش أحداثها وأرى أشخاصها، وبمجرد أن أغلق الكتاب تقفز علىّ الضيقات، وبعد فترة لم تكن لدى القدرة حتى على القراءة، عقلى (لا يُجمّع) لا يستوعب، فكنت أعود لبداية

القصة لأتذكر شخصية صاحب القول الذى أقرأه، بل وصل بى الأمر إلى حد أنى عند وصولى لنهاية الجملة أكون قد نسيت بدايتها، على الرغم من أن ذاكرتى كانت من حديد وكان تقدمى فى اللغة الإنجليزية والفرنسية ودرجاتى فى اليونانى القديم التى لاتقل عن ٩٧٪ تشهد بذلك.

رغبتى فى العمل انقطعت تماماً بعد أن كنت أعمل ثمانى عشرة ساعة يومياً، كان ليلى حالك السواد، إنه جحيمى الذى أدخله كل يوم، كم كنت أتمنى حلوله وكم كنت أخاف من حلوله، كأن حارس الجحيم يمسك بلطة حادة وينتظرنى بعد تقلبى على الفراش حتى بداية الفجر (وأنعس) لحظة فيضرب بالبلطة أم رأسى فأقوم صارخاً متلوياً من الألم، وها أنا تخطيت الحارس ليتلقانى وحوش كواسر لم أر لها مثيلاً حتى فى أفلام الرعب، كوابيس ويقظة وفزع.. وكوابيس ويقظة وفزع، حتى تكتمل ساعة أو ساعتان على الأكثر لتبدأ رحلة عذاب النهار. ولا أتذكر أنى أحسست بالجوع إطلاقاً إنما هى عادة أن أحمل غذائى وأذهب للقلاية.. كان طعم الطعام مراً للغاية، أيكون به افسنتينا أم مرارة نفسى تطغى مرارتها على كل شىء حولى؟ وهنا يقوم الصراع فأضغط على نفسى لكى آكل ويصرخ فىّ عقلى ولماذا تأكل؟ فأجيبه: لكى أعيش. فيزداد صياحه وانتهاره: أتريد أن تعيش هذا الجحيم وهذه المأساة؟ وهنا لا أستطيع إجابته وتكون اللقمة فى يدى قريبة من فمى فلا أستطيع دفعها إلى داخله وتكون ذراعى كلت وتعبت من الصراع وانتظار نتيجته فتسقط منى على طاولة الطعام.. يأس من الحياة كلها.

بدأ فقدان الثقة فى الأخرين حينما انهارت المثل العليا بداية بالأب الروحى وانتقل عدم الثقة إلى بقية الرهبان، وهو شىء ثقيل وخطير. والأخطر منه فقدان الثقة فى النفس، فى إمكانياتى، فى قدراتى، فى تفكيرى، فى اتخاذى قرار، وفوق كل خطورة فقدان الثقة فى الله، كان الله هو كل شىء فى حياتى وكان هو أمى وأخى وأختى وكل أهلى، كانت آمالى مركزة فيه وهدفى هو الوصول إليه، أما الآن فلم يعد مجيب الدعوات ولا سامع للصلوات، وإحساسى بوجوده الذى كان حاضراً كل حين والذى كدت أن أسمع صوته فى كل عمل، فقد كان ينتهرنى إذا شردت أفكارى للسوء ويطوبنى إذا مالت أفكارى للخير والبر.. نعم كان أمامى كل

حين.. الآن إحساسى بوجوده، صار ضعيفاً جداً حتى تصورت بل واقتنعت أن الله ترك الأرض ومن عليها يتخبطون، فترك القوى يأكل الضعيف والظالم يتجبر على المظلوم. وكم عاتبته ـ إن جاز التعبير ـ على ذلك، بل وكم شاجرته وصحت فى وجهه، الشىء الذى لم يحدث ولم أكن أتوقع أنه يحدث منى من قبل، فكم أظهرت برى له وأننى بذلت نفسى وروحى وجسدى وكل ما أملك فى خدمته وفى خدمة أولاده، وهاهو يكافئنى على برى ونقاوة يدى وخدماتى ونصاعة ضميرى بكل هذه الآلام والقسوة والمعاناة.

كانت نفسى محتدة على الله وكنت أخشى أن أظهر له ذلك التبرم والتذمر ولكن تحت ضغط أعصابى الهالكة كنت أصطدم به وأصارعه ـ إن جازت تعبيراتى ـ ماذا فعل من إثم حتى ألقى هذا المصير؟ أهذا رد على حبى لك وتركى العالم كله لأجلك والذهاب خلفك لأرض قاحلة مالحة، أناسها لهم قلب الأسود يأكلون أرضهم وأرضهم تأكلهم؟ وأحسست أنه أغلق أحشاءه نحوى وأدار ظهره لى ففقدت الإيمان، ماذا بقى لى؟.. فقدت الثقة فى الناس وفى نفسى وفى الله.. ما أتعسنى، بل إنى أتعس مخلوق على وجه الأرض كلها. الخوف والهلع لازمانى، كنت أخاف من السكون وأخاف من الضجيج، أخاف من علو الصوت ومن انخفاضه، من النهار ومن الليل، من الصيف ومن الشتاء، بل لم أكن أعرف الصيف من الشتاء، غير أن الصيف لعين عندى بسبب الحر والبعوض ألد أعداء النوم عندى، فمن شدة لظى نفسى كنت أحس بحرارة شديدة فى جسدى حتى فى عز الصقيع، وكنت أرفع الغطاء عنى بسبب ذلك. ولكم كنت أحس بالشىء ونقيضه فى نفس اللحظة، فأحس مثلاً بالبرد فأثقل الغطاء وماهى إلا بضع دقائق حتى أرفع جميع الأغطية من فوقى. كنت مسجوناً فى الضيق دائماً، أريد أن أخرج من السجن المريع هذا، ومن هنا بدأت فكرة الانتحار، كانت فكرة وقويت حتى صارت صوتاً وشبحاً يعذبنى ليل نهار «أنهى هذا الضيق بإنهاء الحياة»، وإنى أعلم يقيناً وكما تعلمت وتربيت أن المنتحر لايدخل الملكوت (الجنة)، فكنت أتجلد وأصبر نفسى، ولكن إلى متى؟ أليس من نهاية؟

ذهبت إلى جميع آباء اعتراف الدير ولم أجد لديهم حلاً أو علاجاً، وعلمت أنه شىء نفسى، فذهبت لكبير الأطباء بالدير، والحق يقال وأنا سوف أدان عن

كلمة كتبتها أمام الله، أنى مازلت أحب وبشدة هذا الشخص، فقد كان أميناً ودوداً حساساً صادقاً طيباً، نعم على الرغم من الظلمة الحالكة وأن معظم رهبان الدير سيئن إلا أن هناك قلة لايصح أن نطلق عليهم اسم رهبان، بل كانوا رجال الله، ولا أبالغ إن قلت رُسل أو أنبياء.

أما عطشى للموسيقى فى تلك الفترة فلا يوصف، كان بلاحد، حتى أن رنين غطاء الطناجر الذى يحدث مصادفة يجعلنى أحس براحة كبيرة، ولكن من أين لى شرائط الموسيقى أو سماعى للكمان؟ نعم.. كنت فى أشد الحاجة للموسيقى.

●●●

استمع لى الأب «ل» كبير الأطباء ثم قال لابد من العلاج (يقصد العلاج النفسى)، وكل منا يحمل فى قلبه كم من الخوف ومقدار من العداء هائل لكلمة العلاج النفسى، وقد قرأ أفكارى، فعقب وقال لاترفض الآن، اذهب وقرر وعاودنى فيما بعد. ذهبت لصراع مرير، إن أخذت علاجاً فسأدخل فى الإدمان، وكيف أتخلص منه حين ذاك؟ وكما ذكرت أن معظم المعالجين نفسياً لم يحدث تقدم فى حالاتهم، بالإضافة إلى عدم قدرتهم على الامتناع عن الأدوية، وقد حدث لأحدهم أن امتنع عن الدواء أكثر من مرتين وفى كل مرة كانوا يعيدونه إلى الدواء بكم أكبر من سابقتها ويصعب على متناول الأدوية ترك الرهبنة والدير فهو مربوط إليها ولا يستطيع مواجهة العالم وهو مريض ومن سيشترى له هذه الأدوية الغالية، وإن بقى المتعالج فى الدير فهو يعيش بيننا نصف نائم يسير وكأنه «مسطول» يتحدث بثقل اللسان، حتى صرح لى أحدهم أن معدته لاتقوى على العمل من كثرة كم المهدئات التى يتناولها، ونظرة الرهبان التى كانت باحترام للشخص لتقواه أو إيمانه أو إخلاصه فى العمل أو ذكائه.. إلخ، تتبدل إلى نظرة لشخص مريض مليئة بالاحتقار وربما يتهامسون تهكماً عليه.

وإن رفضت العلاج فسأظل فى هذا الضيق وأنا لا أطيقه ولا يمكن أن أعيش بدون نوم أو طعام.. هناك حل مرعب كان وروده ضعيفاً على فكرى إلا انه يقوى شيئاً فشيئاً.. «ترك الدير».. وترك الحياة النسكية والذهاب لحياة الخدمة وهى أقل جفافاً من هذه الحياة، ولكن هب أنى استرحت فيما بعد وتحسنت

حالتى ألا يلومنى ضميرى أو عقلى على أننى تركت الحياة الرهبانية؟ لسوف يلومنى.. إذن فالأقطع عليه ملامتى فيما بعد وأتناول الأدوية، فالأدوية هى الورقة الأخيرة فى يد الدير، فالأسمح له بإلقائها على ساحة دَجَلة الكبيرة وأريح ضميرى فيما بعد ولا تلومنى نفسى فيما بعد.

أبلغت الأب «ل» برغبتى فى العلاج، وبعد أسبوع حضر د. «ر»، كان قصير القامة قليل الجسم له إذن تسمع حتى لو طال حديث المتحدث حتى الصباح، أسئلته دقيقة محددة، ولم يكن كلامى تفصيلاً ولكنه كان مبلغاً، فعرف مايريد معرفته. فقال إنه اكتئاب نفسى، فقلت أريد علاجاً لا يتسبب فى إدمان، فقال هذا لايتوافر إلا فى نوع ولكنه ضعيف، فقلت عليك به، فقال فلنجرب. وأخذت «الموتيفال»، وبدأنا بقرص ثم أقراص ولكن دون جدوى، فقلت فى نفسى مادمت بدأت بالعلاج فلأتعالج كاملاً، وبدأنا بنوعين من تلك الأودية ثم ازدادت إلى خمسة أنواع فى نهاية تسعة أشهر، وهى مدة كافية لإعادة المريض لحالته الطبيعية لو كان العلاج فعالاً، ولم تكن للعلاج جدوى، ولابد من ترك الدير فقد كان حالتى تزداد سوءاً.

ولكن هل الكبت والضيق والمرض النفسى أسباب كافية لترك الدير؟ أليس هناك سبب داخلى؟

حينما كنت أصلى قبل أن أمرض كنت أحس براحة كبيرة وسلام يملأ قلبى ونفسى، فإذا كنت خائفاً يزول عنى الخوف وأجد شجاعة فى نفسى لأن الله سمع صلاتى أو أنى أبلغته بمخاوفى وحينما أكون حزيناً أفرح بالرب، وهكذا إذا كنت فى قلق أو تشكك.. إلخ، وهكذا كان الإنجيل يثلج صدرى وكنت أنفعل بآياته، فإذا ضعف إيمانى فآياته تقوى إيمانى وإذا تغلبت أفكار الشر على فكرى فآياته كالنور الذى إذا ظهر تبددت الظلمة. وبصفة عامة يسمى المتدينون هذه الأحاسيس بالتعزية «تعزينا تعزية ليست بقليلة»، هذه التعزيات كان كثيرة ومتنوعة، ولكن فى الفترة الأخيرة نضبت بل وصارت زيارتها لى نادرة جداً، فخرجت إلى الجبل لأصلى وصرخت إلى الله وبكيت بكاءً شديداً، كان صراخى عالياً وكأنها آخر صلاة بالدير، وقلت للمولى إن عدم عزائى وعدم وصول قوتك

إلى نفسى معناه ترك الدير، وربما ترك الرهبنة كلها لأن شهوراً طويلة مضت وأنا فى عذاب نفسى. وانتظرت هذه المعونة الخارجية ولكنها لم تأتِ وعلمت أن الله يريدنى أن أترك الدير.. هذا كله قبل الدخول فى مرحلة العلاج، كنت أعلم أن العلاج يمثل المواساة للفريق المهزوم، فلا فرصة لإحراز نصر ولا للتعادل، فقد مضى الوقت الأصلى والوقت بدل الضائع. ولو تلقى الفريق مواساة العالم كله وتشجيعه لما عاد إليه الفوز!!

15

الخروج من جحيم الدير

لم أشعر بالارتياح فى الخدمة بالرغم من نجاحى فيها، ولم أرتح فى الدير الآخر، وقررت النزول إلى العالم، وجاء الأخ مجدى ليزورنى فى الدير الآخر وقال: «إن الراهبة (هـ) علمت بقرارك وسوف تأتى لزيارتك فى الأسبوع القادم». وكم كنت فى حاجة ماسة للحديث معها ورؤيتها، فقد كنت أتخبط فى الظلام وأحتاج لسماع أى حبيب أو صديق.

وفى الموعد المحدد جاءت لتقابلنى فى السيارة خارج الدير فأخذت يدها وقبلتها بشغف ووضعتها على قلبى، فقد مر عام دون أن أراها، وكنت أريد أن أرتمى على صدرها وأبكى، ولولا ملامحها الجادة لأخبرتها بذلك. وأحضرت لى ساندويتشات ومشروباً وبعض الحلوى، وبدأت تحدثنى كأنها تنصح ابنها: «لاتترك الدير فهو بركة عظيمة، يكفى أنك داخل أسوار ولك غرفة تنام فيها، إننى حزنت لقرارك وجئت لأنصحك بالعدول عنه».

فرددت عليها قائلاً: «لا أستطيع يا أمى فنعمة الدير بالنسبة إلىَّ نقمة وأعانى بداخله من التمزق النفسى، وغرفتى لا أستطيع النوم فيها مطلقاً بسبب التوتر والصراع الروحى الذى أعانى منه».

وبذلت كل جهودها لإقناعى بالبقاء فى الدير، ولم أشأ أن أخذلها فقلت لها: «سأفكر فى الأمر»، على أن قرارى كان لا رجعة فيه، وافترقنا ومن يومها لم أستطع رؤيتها، ولم يكن تربطنى بها عاطفة فليس لديها وقت أو اتجاه للتفكير فى هذه الأمور الدنيوية، كل ماكان يربطنى بها الظلم المشترك والمأساة الواحدة.. والألم الذى نعانيه سوياً، وهى أحاسيس جمعت بين قلبينا، وقد وصلتنى أخبار عنها بعد ذلك تقول إنه تم تأجير غرفة لها وهى تقوم بعمل أغطية الرأس للرهبان والكهنة وتبيعها إليهم لتأكل بثمنها..

وأخيراً تركت الرهبنة ونزلت إلى العالم.

●●●

الوداع من الأشياء المؤلمة على نفس الإنسان، ولقد شعرت بهذا الإحساس عندما قررت مغادرة الدير، وفى الليلة السابقة على مغادرتى الدير قمت بجولة له أخيرة فى الحقول والمزارع وبين المبانى.. أتذكر كل شىء، يتصارع بداخلى الفرح مع الحزن.. عشر سنوات كاملة أمضيتها فى الدير وبجوار المعاناة النابعة من التسلط والتحكم والاستبداد كانت هناك السعادة الطاغية والتى تولد بالنفس من جراء غرس شجرة فى أرض جديدة، ويختلط الإحاس بالفرار من الحرمان مع الشعور بفقدان أماكن أصبحت جزءاً لايتجزأ من تاريخى، ولكننى قبرت بداخلى كل المشاعر التى تشدنى مرة أخرى إلى الدير، وأثناء الليل وبشعور وتصرفات الهارب قمت بوضع كتبى وملابسى فى مبنى جديد بجوار الطريق الممهد، وفى الصباح الباكر استوقفت سيارة من سيارات الدير قائدها شاب على علاقة طيبة بى ووضعت الكتب والملابس فى السيارة وغطيت أشيائى بملاءة، وقلت له أريد الطريق العام، وعند خروجى من بوابة الدير لم يعترضنى العامل فهو يعلم أننى أخرج كثيراً لإحضار مايحتاجه الدير من الخارج، ولم أخبر أحداً بمغادرتى للدير سوى الأب البواب ليعطينى نقوداً لأسافر إلى القاهرة، فعشرة أعوام من العمل «كالحمار» فى الدير ولا أملك أجرة الطريق للعودة إلى القاهرة، وكان البواب من بلدتى وقد ذهل كل الذهول لقرارى «أليس أنت من كان يشجعنا على البقاء فى الدير؟ ألم تشجعنى من قبل وأقنعتنى بعدم مغادرة الدير عندما حاولت الفرار؟». أثارت كلماته تلك فى نفسى شعوراً طاغياً بالحزن.. فقد كنت أحب الأب البواب، فقد كنا فى الثانوية العامة معاً، وكنا نخدم ونصلى معاً، وكانت الرهبنة هى الهدف والحلم بالنسبة إلينا.. وهاقد تحقق الحلم.. فلم الهروب؟

ولكننى كنت قد عقدت العزم، وبالفعل ضغطت على نفسى، وواصلت طريقى. ولم يكن سائق السيارة الشاب على علم بنيتى، وعندما وصلنا إلى الطريق العام ولم أجد سيارة فى انتظارى.. سألنى قائلاً: إلى أين؟ فقلت له: إلى القاهرة. «هل ستترك الدير؟».. فأجبته بنعم، فسالت دموعه وصوته يختنق وهو

يرجـونى بالعـودة: ارجع يا أبونا.. ارجع أنا لا أستطيع العـودة بدونك. وتمالكت أعصابى وأعطيته بضعة جنيهات وقلت له: ارجع حتى لاتتأخـر على عملك. وعاد إلى الدير وكنت أعلم أنه سيخبرهـم وإن لم يكن بالكلام فبالدموع.. وسـرعان مـا ستأتى سـيـارات الدير لإعادتى إليه، ولكن العناية الإلهـيـة أرسلت لى (تاكسى) فأسرعت بالركوب والفـرار إلى القاهرة، وعلمت بعد ذلك أن الدير أرسل خلفى أربعة سيارات ولكن بعدما نفذ الأمر واستطعت الفرار.

وفى طريقى إلى القاهرة لم أكن سعيداً بحريتى ولا حزيناً على مغادرتى للدير وأيضاً لم أكن خائفاً، فكم من المرات التى هربت فيها بروحى وخيالى بعيداً عَن الدّير. وما تحقق الآن ماهو إلا الفرار بالجسد، ولكننى كنت أشعر بضيق لا أدرى مصدره ولم أستطع أن أتخلص من هذا الشعور. وظننت أن شعورى بالضيق سيتلاشى إذا عدت للخدمة، أى لوعظ الناس، ومن خلال الأخ إيهاب كنت أتصل فى الشهور الأخيرة بالأنبا (غ) صديقه، وعرضت عليه مشكلتى والتى هى نفس مشكلته، فقد كان بنفس الدير الذى غادرته وشعر بنفس الضغوط التى عانيتها فترك الدير والرهبنة وعاد إلى بيته، ولكن قداسة البابا أعاد إليه ثقته بنفسه ورسمه أسقفاً، واتفقت معه أن أخدم عنده فرحب بذلك، ووعدنى أن يأخذنى لقداسة البابا للموافقة على ذلك ثم يعود بى إلى محافظته فأقيم عنده، ولكن ماذا يحدث لو فشلت فى الخدمة؟!

وبالنسبة لقصة الأخ إيهاب.. فقد كان شاباً أسمر اللون خفيف الظل، عذب الحديث، من الشخصيات التى تستطيع أن تنفذ إلى الأعماق، وله حس عال للشعور بالآخرين، متفوق فى الدراسة فحصل على المركز الأول فى إعدادية السويس وأتم دراسته الثانوية بتفوق فى القاهرة، وأصبح طبيباً بارعاً وترك كل هذا ليلتحق بالدير.. وعمل فيه طبيباً وفى خلال ثمانية شهور أثبت كفاءة عالية شهد له بها أطباء الدير القدامى، ومن خلال ذكائه اللماح اكتشف حقيقة الدير.. فما سمع عنه طوال عمره عن روحانية الرهبنة وملائكية الرهبان تكسر وتلاشى بالممارسة العملية، ولكنه أخذ الأمور ببساطة، ولكن بساطته وفكاهيته لم تصمد لأكثر من ثمانية شهور، فدخل فى حالات من التوتر والاكتئاب حتى قرر الهروب من الدير، وصارحنى بذلك فساعدته واقترضت له نقوداً من أحد السائقين من

بلدتى.. ولازلت أذكر قصة هروبه، حيث اصطحبته سراً فى الساعة الواحدة ظهراً إلى سور الدير.. وظللنا نبحث بطول السور عن شجرة أو حجارة لنضعها فوق بعضها البعض ليتسلق السور، وفجأة وجدنا سلماً خشبياً وكأن العناية الإلهية تريد لنا الفرار من سجن «الباستيل» هذا، وصعد هو على السلم بعد عدد من القبلات والأحضان والتى أهاجت دموعى، ووصل هو إلى حافة السور العليا ثم قفز إلى الخارج، وبعدها تلقيت خبر فرار الأخ إيهاب من الدير وكأننى لا أعرف شيئاً..

ولو علموا بعلاقتى بالحادث لقاموا بطردى من الدير دون أى نقاش.

أفقت من ذكرياتى والسائق يدخل بالتاكسى إلى القاهرة، فقلت له: «أريد محطة السويس»، ومن هناك أخذت سيارة أجرة إلى السويس، وعندما وصلت إليها اتصلت «بإيهاب» ولم أجده، وماهى إلا بعضة دقائق حتى حضرت إلىّ الدكتورة (م) أخت إيهاب وزوجها الدكتور (ى) وقاما باصطحابى إلى شقتهما وأنا فى غاية السعادة، ثم حضر إيهاب ومكثت عندهم لمدة أسبوع تخللته زيارة إلى دير الأنبا (بولا) بالبحر الأحمر، وما أن رأيت أحد الرهبان، وإذ بجسدى يقشعر، وبدقات قلبى تعلو.. حتى كاد أن يغشى علىّ..

> **أرسل إلىّ الأنبا (غ) قائلاً: «مادمت قد نزلت عند الأخ إيهاب ولم تنزل عندى مباشرة، فأنا لن أذهب معك إلى البابا»، وتعجبت لموقفه هذا غاية التعجب، فهل هو خائف من الموقف كله، أو منى شخصياً؟ ولماذا هذا التخاذل؟ ومن هو الأخ إيهاب؟ أليس صديقه وقد عرفته من خلاله؟**

وزارنى الأخد (مجدى) شقيق (إيهاب) الصغير ليتعرف علىَّ، وقام بتشجيعى وقال لى: «سوف أذهب معك إلى الأسقف (س) وهو سيصحبك إلى قداسة البابا»، وكان هذا الأسقف نشيطاً وجريئاً.

أخذنى الأسقف (س) إلى قداسة البابا وبعد أن قبّلت يديه قال لى:

> **«كويس دا أنا النهاردة هتكلم عن ديركم واللى بيحصل فيه»، وكانت محاضرة لطلبة الإكليريكية بتاريخ ١٩٩١/٤/٣٠، بعنوان (مناقشة**

كتب أبينا متى المسكين) وتناول فيها البابا بعض الأخطاء - من وجهة نظره - والتى جاءت فى كتب الأب متى المسكين، وهو الأب الروحى للدير الذى عشت فيه طيلة العشر سنوات الماضية، وهو صاحب كل المهازل التى كتبت عنها، والواقع أن الأخطاء التى تحدث عنها البابا لم تكن جوهرية ولم تمس العقيدة وإلا عُزل أبونا متى المسكين وحرقت كتبه والتى ماتزال تملأ المكتبات، وفى نظرى فأبونا متى المسكين سليم فكرياً وعقائدياً ويعتبر من أكبر اللاهوتيين فى عصور عديدة فأسلوبه قوى ومنطقى وفلسفى يمزج العقيدة بالفكر فى أسلوب رائع خلاب ويعتبر بمفرده مدرسة جديدة تتلمذ فيها كل رهبان ديرنا بما فيهم أنا، كما تتميز كتاباته بخبرة روحية عميقة، قلّ أن تجد لها مثيلا عند اى زاهد أو راهب أو أى مفكر آخر، ولكن مشكلته تكمن فى التمزق الفكرى، فسلوكه يختلف تماماً عن أفكاره وينطبق عليه قول السيد المسيح: «كل ما قالوه لكم افعلوه فافعلوه ولكن إلى أعمالهم لا تنظروا». فهو يوصى بالمحبة وتمتلىء أفعاله بالحقد والقسوة والكراهية والكبرياء ويتملكه حب الشهرة وجنون العظمة، إننى مهما كتبت فلن أستطيع أن أعبّر عن خبث وحقد ودهاء أبونا متى، وهناك عشرات القصص التى تؤكد كلامى هذا، ويكفى قصة أبينا (سيوس) فقد كان صديقه ورفيقه لمدة ثلاثة عشر عاماً، وكان صادقاً وأميناً مما جعل الأب متى المسكين يكتب عنه أنه مصدر ثقة، وتكفى أن تعلم أن أبونا (سيوس) هذا ترك الدير لسوء أخلاق الأب متى المسكين وقال: «إننى دخلت الدير من أجل المسيح وتركته أيضاً من أجل المسيح»، وسمعنا أنه سافر إلى بريطانيا وتزوج هناك.

وكان البابا يعرف كل هذه العيوب وربما اكتشفها أثناء تلمذته على يدى الأب متى المسكين فى الخمسينيات، وقد تحدث عن كل هذه العيوب فى محاضرته غير أنها حُذفت ولم تسجل على أشرطة الكاسيت فى ذلك اليوم وبقى من كلام البابا حديثه عن الدير وأوضاعه بصفة عامة وكيف أنه تحول إلى مؤسسة

إنتاجية ولم يعد مكاناً للعبادة، كما تحدث عن ترك الرهبان للدير وأن لديه شخصياً مايزيد على سبعين راهباً منهم من رسمهم كأساقفة ومنهم من رسمهم ككهنة.. ومن كلفهم بخدمات فى مصر وخارجها، ثم تطرق البابا للحديث عن الأوضاع السيئة للرهبان، وقال صراحة:

«إن الدير له فرع خاص بمستشفى الأمراض النفسية بحلوان»، مما أثار حفيظة الشباب، فوقف أحدهم وسأله بجراة: «مادمت تعلم كل هذا وأنت المسئول عنه فلماذا تسكت؟ ولماذا لم تتخذ قراراً بعزل أبينا متى؟»، وأجاب الباب بأنه يميل فى تقويمه بالتعليم والإقناع وليس العنف والترهيب كما أنه عاهد الله يوم رُسم كاهناً أنه سيعمل للخير وليس للانتقام أو الشر.

وانتهت المحاضرة وصعد البابا إلى الدور العلوى، وبعد قليل أرسل فى طلبى لمقابلته بغرفته الخاصة، وذهبت إليه ووجدته بشوشاً ونبرات صوته تحمل إليك طيبة قلب منقطعة النظير.. كما أنه يستمع إليك باهتمام ويحدثك بأدب شديد وحدثنى عن أوضاع ديرنا السخيفة وعن بعض الرهبان هناك وما يفعلونه وهو على علم بكل مايحدث فى ديرنا، ثم حدثنى عن إرساله لأبينا متى ليأتى ويذهب هو شخصياً لقيادة الدير ولكنه فوجىء باثنين من الرهبان يحضران إليه ومعهما قائمة بأسماء الرهبان وتوقيعاتهم.. والتى يؤيدون فيها متى المسكين ويرفضون قيادة قداسة البابا لهم، وهل يمكن أن أفرض نفسى عليهم؟ وخفت أن يأتى قداسته بالقائمة لأن اسمى وتوقيعى فيها.. ولهذا قصة أخرى.

●●●

للمشاكس الذى سُمى خطأ بالمسكين تاريخ طويل فى الخلافات والصدام مع الكنيسة وقادتها بدءاً من البابا يوساب حتى الباب شنودة، وقد استطاع بخبثه وذكائه أن يجمع حوله شلة من اللصوص والمنافقين وأيضاً وكما نقول بالعامية (كدابين الزفة)، وقد صنعت له هذه الشلة هالة من النور والقداسة، وخلعوا عليه الشفافية ومعرفة الغيب، وقد بدأ هو الجزء الأول من صناعة أسطورته وأكملوا هم باقى الأجزاء..

فالعذراء مريم تظهر له وتعطيه نقوداً، والله يكلمه ويوحى إليه، وقص علينا بنفسه قصة ظهور الشيطان له، محاولاً قتله وسرعان ماحضر رئيس الملائكة (ميخائيل) ففر الشيطان من أمامه وظل رئيس الملائكة فى غرفته لمدة ساعة وهو ساجد أمامه لايرفع النظر إليه، أما الرؤى والأحلام فحدث عنها ولا حرج، حكى لنا واحد من شلته كيف شبت النيران ذات يوم فى مخزن الخشب ولم يستطع الرهبان إخمادها، فحضر الأب متى وامسك بكوب من الماء وتمتم عليه بكلمات سحرية ثم سكب الكوب على النيران فأطفأها فى الحال.. أليس هذا الكوب مثل مصباح علاء الدين؟!.. والغريب أنه طوال مدة تواجدى فى الدير لم تحدث ولا معجزة واحدة من معجزاته الروحية تلك!! أكان وجهى يحمل النحس له ولمعجزاته؟!

كان الأب متى المسكين فى بداية حياته الرهبانية يحلق فى السماء ويحلم بأنه سيعيد للرهبنة قوتها بعد ضعفها فى فترتى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وبأنه هو المخلّص المنتظر الذى سيعيد مجد الآباء ويملأ البرارى بالرهبان العابدين والمتوحدين من جميع أنحاء العالم ليترهبنوا فى مصر.. وتمر السنوات ويصطدم الحلم بصخرة الواقع وتبوء جميع محاولاته بالفشل، وأكثر من هذا فقد شق عليه العديد من الرهبان عصا الطاعة وقد حصد ما زرعه.. فقد زرع التنافس والكراهية بين الرهبان فأضرمت نار الغيرة والتناحر بينهم وحوّل الدير من مكان للعبادة إلى مؤسسة إنتاجية هدفها العمل والربح.. مما فجر الخلافات بين الرهبان.. فلجأ الكثير منهم إلى الهرب.. ولم يستطع هو تحمل كل هذه المسئوليات فكان يهرب حيناً إلى أراضى الدير عند الكيلو (٧٠) بالقرب من برج العرب حيث يمكل الدير ٣٠ فداناً هناك، وحيناً آخر عند أخيه المهاجر فى أمريكا، وفى كل مرة يمكث عام أو أقل تقريباً حيث يجمع قواه ويلملم شتات نفسه، ويحلم مرة أخرى برهبنة القرن الرابع الميلادى فيعود إلى الدير بقسوة وسلطة وأوامر ونواه جديدة، ويؤدب هذا ويسحق ذلك ويطرد ثالث، وتتأزم نفسه لتمزق حلمه وماهو إلا شهر أو شهرين ويهرب ثانية ليعاود الكرة من جديدة..

ونظراً لتضخم ذاته وطلبه للشهرة وحبه فى السيطرة، اقترح على

قداسة البابا فى السبعينيات أن يتعاونا معاً لإنشاء رهبانيتين.. واحدة للخدمة وأخرى للعبادة، الأولى تخدم البابا فهو يحتاج من حين إلى آخر لأسقف أو كاهن وهذه الرهبنة تقوم بإعداد الكوادر اللازمة للوعظ وحل مشكلات الناس.. إلخ. أما الثانية فهى للعبادة فقط، وهى هدف المسكين من هذا الاقتراح ليكون أباً لجميع الرهبان، ولكن قداسة البابا قابل هذا الاقتراح بالرفض.

ولما اشتد ضغط الدير ورهبانه بمشكلاتهم على أعصاب المسكين فى عام ١٩٨٨ أو ١٩٨٩ تقريباً، قرر التخلص نهائياً من الدير فكتب رسالة مطولة إلى قداسة البابا شنودة ليأتى ويتسلم الدير، وقرأ علينا الرسالة أبونا (فرقع لوز) وهو من شلة المسكين، ثم أرسلها المسكين مع الأب (أ) والأب (ى) إلى البابا شنودة، ومى وقت لا نعلم فيه ماذا حدث، وإذ بالأب (كوكو) ـ هو الآخر من شلة المسكين ـ يجتمع بالرهبان رسمياً لأول مرة، وأخذ يحدثنا عن فضل المسكين علينا جميعاً وكيف أن المشكلات أثقلت كاهله مما اضطره لإرسال مثل هذه الرسالة إلى البابا، وبالطبع فالواجب علينا أن نتمسك بأبينا الروحى وألا نرضى بغيره بديلاً، وأن نكافئه بالحسنى فنطيعه.. إلخ. ثم طلب منا التوقيع على رسالة إلى البابا شنودة نتمسك فيها بأبينا الروحى، إلا أن كثيراً من الرهبان ـ وأنا منهم ـ تركوا الاجتماع بدون التوقيع فقد كنا فى حالة استياء شديدة من الأب متى المسكين، ولكن الأب (كوكو) المحترم كان يلاحقنا فى أعمالنا ويضغط علينا لنوقع على الرسالة وإلا سوف نتهم بالخيانة. وتحت ضغوط (فرقع لوز) و(كوكو) قمت بالتوقيع على الرسالة، وأرجح أنهما كانا يعلمان بعزم الباب على استلام الدير ولذا قاما بهذه المسرحية الهزلية، وخاصة الأب (فرقع لوز) فقد كان كبير (كاذبى الزفة) للأب متى المسكين، وكان يحقد على البابا شنودة ويتكلم عنه بسوء، ليس هو وحسب بل أيضاً يكره جميع باباوات الكنيسة..

فقد سمعته مرة يحكى عن علاقات نسائية سمعها وشاهدها للبابا كيرلس السادس!!

وقد رد قداسة البابا على تلك الرسالة برسالة شفوية مع حاملى الرسالة الأولى للأب متى المسكين يتلخص مضمونها فى سؤال واحد:

«هل لازلت مقتنعاً بفكرة الرهبنة فى القرن الرابع الميلادى؟!».

وهو مضمون لايخلو من التهكم والسخرية، ويؤكد من جهة أخرى فشل فكرة الرهبنة كما كنا نحلم بها..

وأعتقد ان أزمة الرهبنة الحالية ليست فى الرهبان او المتقدمين للرهبنة فمعظمهم من أجود خامات البشر، ولكن أزمتها الحقيقية تكمن فى عدم وجود أب قائد معلم يضحى بنفسه من أجل الضعفاء.

وفى نهاية مقابلتى لقداسة البابا طلب منى أن أمكث معه فى الكاتدرائية وحين يذهب للدير سوف يصحبنى معه وأقيم فى مقره الخاص هناك، ومكثت شهراً فى الكاتدرائية التقيت خلاله بالراهبة (هـ).

●●●

اتصلت بوالدتى قبل مغادرتى لدير «الأنبا بيشوى» وحينما سمعت صوتها بكيت كطفل أبعدوه عن أمه، وسمعت صوتها يسألنى: هل هكذا يبكى الجبار؟ قبل التحاقى بالرهبنة كنت معروفاً بالطموح والجرأة والصلابة فلم أعرف البكاء طوال حياتى، والآن أبكى لسماع صوت أمى وأتمنى أن أرتمى بين ذراعيها وأضع رأسى فوق صدرها لأنسى همومى كلها، كنت أحتاج إلى الثقة والأمان فى ذراعيها.. وإلى الحنان والاطمئنان فى ضمة صدرها.. وتحينت العودة إلى البيت.. أرى جيرانى من أحبهم ومن يكرهنى منهم، وتداعب صور البنات اللاتى لعبت معهن فى طفولتى خيالى.. ولكم أشتاق إلى قبلة سرقتها من فتاة عرفتها فى مراهقتى، لكم أود أن أعود طفلاً، ولقد قتلت روحى وأزهقت نفسى بتطرفى فى التدين والتحاقى بالرهبنة.

وذات مرة أرسلت إلى أمى وأختى وزوجها ليحضروا إلىّ فى دير الأنبا بيشوى فى أمر هام، وإذ بصراخ أمى وأختى يعلو حتى يصل إلى السماء ويأتى الرهبان ليروا المصيبة، وأرسلت إلى أخى الأكبر وهو يعمل فى إحدى الدول العربية أخبره فى رغبتى فى ترك الرهبنة.. فجاء لزيارتى فى الدير وحاول معى كثيراً ليقنعنى بالعدول عن قرارى.. ولكننى كنت مصمماً على النزول إلى العالم..

الجـمـيع كـان يرفض على أسـاس أننى سـأخـرج من طريق الحـيـاة الأبدية. وهل أصـبح الدير هو السـبـيل الوحـيـد للدخـول فى ملكوت الله؟ هـل جـاء ذلـك فى الإنجـيل؟! لا أدرى لماذا ربط الجـمـيع بين الدير والحـيـاة الأبدية؟! حـتى أن أمى قـالت لى فى آخـر زياراتهـا: «كنت أتمنى أن أسـمع خـبـر مـوتك على أن تتـرك الرهبنة». إلى هذا الحـد تمكنت منها تربيتها فى الكنيسـة والصورة الذهنية التى نحتوها فى عقلها.. تضحى بابنها ولا تسمع بأنه ترك الرهبنة، ولكننى لا ألومك يا أمى.. فقد كنت مثلك فى يوم ما.

وإذا كـانت أسـرتى تفضل مـوتى على أن أترك الرهبنة فـمـا بالى بالمجـتـمع المدنى ومن قـبله المجـتمع الكنسى.. ولازلت أذكـر مقابلتى بشاب كنت أعـرفه أيام الرهبنة وكاد أن يغشى عليه عندما رآنى فى ملابس العلمانيين.

وأخـيـراً نفـذت قـرارى ووعـدت أسـقف الدير الطيب والذى صلى من أجلى ونزلت فى شـقة استأجـرها أربعة رهـبان تركوا دير (أبو مقـار) حديثاً، وكان مـعى مـلابس علمـانية - مـدنيـة - اشتـراها لى راهب صـديق بدير الانبـا بيشـوى. وكـان الرهبـان الأربعـة يخـفـفـون عنى الأمـر، وحـينمـا بـدأت فى إزالة لحـيـتى تملكنى الخـوف قليـلاً ولكن إصـرارى على خلع هذه الحـيـاة قـوى من عـزيمـتى.. وقـمت بارتداء قميص وبنطلون لأول مرة بعد حوالى أحد عشـر عاماً ونصف قضيتها فى زى الرهبنـة وكان عـمـرى حـينذاك حـوالى سـتـة وثلاثين عـامـاً، وأعطونى نقـوداً واشتروا لى مـلابس أخرى.

واتصلت بأهلى قبل أن أزورهم لكى لا يفـاجـاوا بمنظرى الجـديد، ولم يقف معى منهم إلا زوجة أخى الصغير والتى كـانت تقـول لى دائمـاً (افعل مـايحلو لك، لماذا تدفن نفسك بالحياه فى معيشة لاترضاها)، وقد قابلتنى بحفاوه شـديدة هى وأولادها الصغار والذين جعلونى أحس بأن شيئاً لم يتغير، فقد كانوا يحبونى ويحتفوا بى فى ملابسى السوداء وهكذا احتفوا بى فى ملابسى الجديدة، ومكثت فى المنزل لمدة شهرين تقريباً قمت خلالهما بعمل بطاقة شخصية جديدة وعمل جواز سفر واستخراج شهادة البكالوريوس من الكلية وتوثيقها وكان من الطبيعى أن أترك مصر كلها لأعيش فى مجتمع جديد لا يعرفنى فيه أحد أو أعرف فيه

أحد، وطلبنى أخى الأكبر فسافرت إليه فى الدولة العربية حيث يعمل ومكثت عنده فى منزله بالعاصمة وجاءت لى فرصة عمل بعقد حكومى حيث المرتب الكبير والإقامة والسكن، فرصة لن تتكرر كما قال أخى الأكبر بالإضافة إلى إمكانية السفر من خلال هذا العمل إلى إحدى الدول الأوروبية وهو حلم كبير بالنسبة إلى الكثيرين، ولكنى رفضت هذا العمل وفضلت أن أعمل مع أصغر أخوتى فى السوق هروباً من العمل فى وظيفة يتحكم فىَّ من خلالها موظفون حسبت أنهم سوف يكونون الرهبان الجدد فى حياتى، وحينما سألنى أخى الأكبر ألا تريد العمل والزواج؟! ألا تريد السفر لإحدى الدول الأوروبية؟! أجبته أننى أريد شيئاً واحداً ألا وهو الراحة النفسية وحينما أحصل عليها سأعرف ماذا أريد.

وعملت مع أخى الأصغر (بالألوميتال) الألومنيوم، وبعد شهرين سافر وتركنى أعمل فى ورشة (أبو خرواطه) وكنت أقوم بكل العمل فى هذه الورشة، وقد أظهرت براعة فى هذا العمل منذ الأسبوع الأول، على الرغم من أن هذا العمل لم يكن سهلاً على الإطلاق.. حيث كنت أصل الليل بالنهار لأنفذ المطلوب منى.. وكنت أنام بالورشة، وكانت مشكلتى الوحيدة هى صاحب الورشة الشاب الذى تعلم الهندسة فى فرنسا وتعلم أيضاً الانحراف هناك.. وأنا أعتقد أن المشكلة ليست فى فرنسا أو فى الغرب ولكن فى الشباب الذى يسافر إلى هناك.

> **فقد سمعت أثناء الرهبنة عن شاب يتردد على الدير بعد عودته من ألمانيا وهناك رفض إقامة أى علاقات نسائية بينما دفعه الكاهن بعد ضغوط شديدة إلى إقامة علاقات جسدية مع زميلاته بعدما اتهمه الكاهن بالشذوذ النفسى وبعدها أخبرنى ابن أخى العائد من إيطاليا عن انحلال الكهنة هناك وصدقته على الفور لأننى رأيت عينة منهم.**

وكان الشاب صاحب الورشة - أبو خرواطه - سكيراً.. ويتعاطى المخدرات ومحتالاً وسيِء السمعة والسلوك، ولم أكن على علم باحتياله وكلما طالبته بنقودى يقول لى الورشة فى بدايتها وأحتاج لكل قرش لأشترى المواد الخام اللازمة

للعمل، وكنت أصدقه، ومرت عدة شهور ولما يئست منه وخاصة بعدما كان يأتى إلى الورشة ليلاً مع صديقته ويجامعها فى فراشى بعدما أترك لهما الورشة وعلى الرغم من أنه متزوج وله طفل.. وكنت أترك لهما الورشة هائماً على وجهى فى الشوارع وأدعى يارب أين كنت؟ وإلى أين أذهب؟

وعلى الرغم من مفاسد - أبو خرواطه - فقد كان طيباً وكريماً.. وكثيراً ماأخذنى إلى بيته ورأيت زوجته الفاتنة.. بشعرها الطويل المسترسل.. الأشقر، وعينيها الخضراوان.. وقوامها الممشوق.. وذراعها البضة.. نعم كانت جميلة مما دفعنى لأن أسأله (لماذا تخطئ وزوجتك بهذا الجمال؟) ولم يستطع الإجابة.. أيكون حب المغامرة؟ أو الشهوة التى تتملكه وتجعله يغير النساء..؛ لست أدرى.. ربما متعة الشعور بارتكاب المعصية والتخفى بأجنحة الظلام، نعم فهذه مشاعر غريبة وجميلة تمتزج فيها المعصية بالخوف.. والإثم بالرعب.. ومرة فمرة يصير الأثم سهلاً والظلام لذيذاً والخطيئة صديقة. وبقيت فى العمل لديه لمدة ثمانية شهور... كانت لمزاجه وشهواته.. أكد وأعرق أنا وهو يأخذ عرقى ليسكر به ويتعاطى الحشيش ويضاجع النساء واتخذت قرارى بترك العمل لديه..، وتركت ورشته إلى الشارع بلا نقود ولا سكن ولا عمل. وفوق هذا رأيت فى هذا الشاب اخلاقيات لم أشاهدها فى الدير كاللف والدوران والاحتيال.

لم أخرج من عملى هذا سوى بأربع كراسات كتبت فيها كل شيء عن العمل بالألوميتال من الألف إلى الياء، وقد قامت إحدى قريباتى بإلقاء الكراسات فى الزبالة.. سامحها الله.

وعدت إلى الشارع من جديد ابحث عن عمل وعن سكن وعن نقود..
أبحث عن أمان وعن صديق ابحث عن الحياة.

الفهرس



■ موضوع حساس وخطير مثل هذا، يتردد المرء آلاف المرات، ولكن كان الدافع بداخلى أقوى من أى تردد.

فأولاً: إن لم يستفد الشباب من تجربتى، فبتجربة مَنْ سوف يستفيد؟ خاصة أن الذين خرجوا من قبلى لم يكتبوا وفضلوا الكتمان على ما اعتبروه فضائح.

ثانياً: إن كل ما نخشى عليه من النور فهو ظلمة، والظلمة كذب، فإذا كان الموضوع الخاص بالكتابة حق فلماذا نخاف من إظهاره؟

ثالثاً: كانت المتضادات التى عشتها تصطرع فى عقلى وكادت أن تفجره، فأردت أن أضع حداً لهذا الصراع الهائل قبل أن أُجن.

أخيراً: إن أنقذت كلماتى شاب واحد من التطرف الدينى أكون قد بلّغت رسالتى وأموت مرتاح الضمير.

علماً بأننى لم أكذب ولا فى كلمة واحدة، ولم أبالغ فى شىء، بل أجهدت نفسى لأصف الأماكن والأشخاص والأحداث كما جرت أمامى. وهل أستطيع أن أكذب فى وقائع أصحابها مازالوا أحياء؟!!

فائق زكه بولس - الراهب جوارجى المقارى «سابقاً»

